

عاطف عبد الغني

أساطير التوراة



مركز
الدراسات
العربية



أساطير التوراة

عاطف عبد الفتى

غلاف : جودة خليفة

الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٨/٢٥١٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-065-9



مركز الحضارة العربية ، مؤسسة ثقافية
مستقلة ، تستهدف المشاركة في استنهاض
وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي ،
في إطار المشروع الحضاري العربي
المستقل .

تطلع مركز الحضارة العربية ، إلى
لتعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع
مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية
مراكز البحث والدراسات ، والتفاعل
مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة

سعى المركز من أجل تشجيع إنتاج
فكرين والباحثين والكتاب العرب ،
نشرها وتوزيعها .

حب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات
بجاية تساعد على تحقيق أهدافه .

راء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء
بيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو
هات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

الجمع والصف الإلكتروني

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : صفاء الشريف

العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

ليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

أساطير النوراة:

عاطف عبد الغنى





- مركز الحضارة العربية ، مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأکید الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية ، إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشرها وتوزيعها .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

الجمع والصف الإلكتروني

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : صفاء الشريف

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

أساطير النوراة:

عاطف عبد الغنى



الإفصاح عن النوايا

عادةً ما يستهل الكتاب مؤلفاتهم بكلمة يقدمون بها أنفسهم أو أعمالهم تحت عنوان (مقدمة) أو (تقديم) لكننى أثرت أن أتقدم لقارئى (أياً كانت عقيدته) بالإفصاح عن نيتى وأفتح له صدرى عما يحتويه ليعلم مقدماً لماذا تصدّيت لهذا المشروع ؟

.. فى البداية علىّ أن أعترف أننى حاولت قدر ما استطعت أن أنحى مرجعيتى الإسلامية لأننى لم أشأ أن أجرى بحثاً فى مقارنة الأديان ولكننى أثرت أن تكون محاولة عقلية لقراءة العهد القديم ، محاولة يحدوها ويسيجها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله .

لقد آمنت بأن الله أنزل توراة على موسى ، سلام الله عليه ، فرُحّت أبحت عنها فى ذلك السفر الضخم الذى بين أيدينا اليوم ويسمى التوراة أو العهد القديم لعلّى أجدها أو أجد قسماً منها .

ومع القراءة الأولى لهذا العهد القديم وجدتنى أيضاً أبحت عن آدميتى وعن كينونتى وكيانى بين خلق الله ، لقد سوانى الله على هذه الهيئة ووهبنى الحياة ، وبالتأكيد لم يفعل ذلك سبحانه ليُسخرنى بعد ذلك وقوداً لمدفأة يهودى فى ليالٍ الشتاء أو طعاماً لقططه وكلابه ، ويوم يأتى اليهودى بشريعة تنكس ما عمره الله وتقلب القوانين التى أرسى الله عليها قواعد الأرض فلا بد أن نقف ونفكر ونسأل أنفسنا هل يصح أن تكون هذه الشريعة من عند الله !!! ويكون السفر الذى يضمها بين دفتيه وحياً من السماء ؟!

إن هذا النفى قد شمل كل خلق الله من غير نسل إسرائيل أياً كانت ملة هذا الآخر وعلينا جميعاً أن نبحت فى سلالتنا فإذا لم نكن من نسل إسرائيل الخالص (كما يدعى التشريع اليهودى) فنحن لسنا من شعب الله ولسنا من خاصته وحادقة عينه وعليها نستحق جميعاً الطرد من رحمة إله اليهود (حاشا لله أن يكون كما وصفوه) .

.. وهل سمع أحد عن جذر شجرة فضّل بعض أوراقها فمدها بالغذاء دون أوراق أخرى ؟!

لقد نبتت هذه الشجرة فى توراة اليهود وجعلوا أنفسهم ثمرتها الوحيدة اليانعة الناضجة .. لماذا ؟!
هذه واحدة .. أما الثانية :

إذا كان الإيمان يستوجب التصديق بالقلب فهو يستوجب أيضاً القبول بالعقل .

وإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ونفخ فيه من روحه فقد جعله أهلاً للكمال يسعى إليه ليناله ويناوئه الشرير فيقعد له عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ومن أمامه ومن أعلاه ومن أسفله ، وينخسه بالمناكب ، فإذا تقلب القلب فقد زاغ ، وإذا زاغ فقد طغى ، وإذا طغى فقد نسى الله ، وإذا نسى الله فقد تهيأ له الظلام نوراً ووسوس له الشيطان وهو يحسبه وحياً من السماء !

باختصار ليس مخلأً ، كانت هذه مشكلة بنى إسرائيل الذين صاروا - فيما بعد - يسمون - يهوداً ، لقد صنعوا مع الله عهداً أبدياً من طرف واحد ، جعلوا أنفسهم فيه يستأهلون ما ليس حقهم ، وفرزوا أنفسهم عن العالمين ، فهم شعب الله المختار وهم خرافه وهم خاصته وحدقة عينه !! .. كيف ولماذا ؟! .. لا كيف ولا ماذا ، هكذا بلا سبب ، وعليه فقد احتكر اليهود الإله وطلبوه يسكن وسطهم بل ادعوا بالفعل أنه يسكن وسطهم وينقلونه مع التابوت وخيمة الاجتماع ! فهل نستطيع أن نصف هذا بأنه نوع من مرض النفس ؟!

لا أعتقد ، بل أرفض تبسيط المسائل إلى هذا الحد المخل ، ولكن نستطيع أن نصف الحالة بأنها نوع من انحراف للعقيدة توارثته الأجيال دون أن تكلف نفسها عناء البحث والتمحيص خاصة مع حساسية المسألة لأنها تتعلق بأمر من أمور السماء والاعتقاد الراسخ ، فالكفار والمشركون أنفسهم دافعوا عن إلحادهم وإشراكهم بضرارة وحاربوا رسل الله لأنهم كانوا يعتقدون أنهم على حق وصواب ورسالات السماء هى التى على باطل !

ولو أن الله فوق طاقة العقل فشريعته التى طلب أن تسود بين الناس توافق المنطق السليم والفهم الصحيح ، وهذا الفهم الصحيح لشريعة الله لا بد أن يقود العالم إلى الغاية الحققة للحياة عبر سبيل صحيح ... هى إذن معادلة مثل معادلات الكيمياء .

فإذا جاءت الشريعة بشئ من الفساد فلا بد أن تقود العالم إلى الفساد والضلال ، وهذه الشريعة لا يُجبر أحد على قبولها أمراً من السماء ، لكن كيف اكتشف ذلك الفساد فى الشريعة ؟! أن أنحى نفسى عن الهوى والأحكام المسبقة وأعرض الأمر على عقلى أفحصه من كل الوجوه فإذا قبله العقل فلا بد أن يستقر فى القلب وإلا فهو باطل ، وهذا ليس اختراعاً منا ، أليس المسيح

هو القائل:

«امتنحوا كل شيء وتمسكوا بالحسن» (١)

أما إذا كان الجميع يتحدثون باسم الإله ، فقد عرف الناس الله بالعقل ولم يره أحد جهرة ،
وعليه فنحن نُحكِّم العقل ليس إلا ، ولا يصدِّق أحد - أبداً - أن العقل - أعظم هبة وهبها الله
للإنسان - يقود إلى الفساد ، فالفساد يأتي من اتباع الهوى عن جهل أو قناعة .
والأمر من قبل ومن بعد ... إرادة الله ... فلتكن مشيئته .

عاطف عبد الغنى

(١) سالونيك الأولى ٥ : ٢١ .

الفصل الأول

التـمـوذة

كثيرون الذين سمعوا عن التوراة وقليلون الذين قرأوها بنية المعرفة وأكثر هؤلاء وأولئك لا يعرفون إلا أن التوراة العبرانية أو العهد القديم هي كتاب اليهود المقدس ، وهي النص المعتمد عند كافة الطوائف المسيحية مع اختلافها حول قبول أو رفض بعض الأسفار ، أما الأسفار المقبولة فتسمى الأسفار القانونية .

والتوراة اسم يطلق مجازاً على كل أسفار العهد القديم لكنه في الحقيقة يختص بالأسفار الخمسة الأولى من الكتاب وهي على الترتيب :

التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية أو تثنية الاشتراع .

وكلمة سفر معناها كتاب وجمعها أسفار واصطلاح على إطلاق الاسم على جزء مستقل من أجزاء العهد القديم وهذا الجزء يُجمع تحت عنوان يحمل دلالة حدث هام مثل التكوين (خلق السموات والأرض) أو الخروج (خروج بني إسرائيل من مصر) أو يسمى على اسم قبيلة (سبط يهودي) مثل اللاويين أو شخص مثل أيوب ، أرميا ، عويديا أو اسم غير محدد مثل المزامير ، الجامعة ، أخبار الأيام ، الملوك إلى آخره .

كذلك العهد القديم أطلق على هذا الجزء من الكتاب تمييزاً له عن العهد الجديد (الإنجيل) كتاب المسيحيين المقدس .

والنص العبراني للعهد القديم الذي بين أيدينا اليوم يضم تسعة وثلاثين سفرًا تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي : التوراة والأنبياء والكتب ، وهذه الأقسام الثلاثة تسمى بالعبرية التناخ (TANKH) والاسم مشتق من الحروف الأولى للكلمات العبرية الثلاث (توراة - نبئيم - كتويم) كذلك يسمى هذا الجزء المعتمد عند اليهود باسم المقرأ أي النص المقروء والمصورة أو المصورت نسبة إلى العلماء المصوريين الذين بحثوا في الحروف الصوتية للغة العبرية . (١)

والنص النهائي للتوراة الماصورية انتهى وضعه في القرن الثامن الميلادي وهو يختلف اختلافاً طفيفاً عن الترجمة اليونانية التي ترجمها حوالي سبعين شخصاً فسمى النص السبعيني وقد وضع

(١) د . حسن ظاظا (الفكر الديني الإسرائيلي) .

هذا النص خلال القرن الثالث قبل الميلاد .

والأسفار الخمسة الأولى التي قلنا أنها تسمى التوراة تبدأ بحكاية خلق الكون فتسرد سلالة الإنسان منذ أبي البشر آدم مروراً بقصص نوح والطوفان وسيرة نبي الله إبراهيم (من وجهة نظر يهودية) ثم سيرة ذرية إبراهيم مع التركيز على اسحق ويعقوب الذي سمي فيما بعد إسرائيل وهجرة إسرائيل وراء ابنه يوسف إلى مصر مصطحباً أهله وينتهي سفر التكوين ليبدأ سفر الخروج بمحنة بنى إسرائيل في مصر إلى أن يبعث فيهم موسى فيقودهم للخروج من مصر إلى برية سيناء حيث يتيهون فيها سنين عديدة إلى أن يدخلوا الأرض المقدسة بقيادة يشوع بن نون فتى موسى وقائد جيوشه .

أما سفر اللاويين فيركز على الشرائع الكهنوتية ويرسخ مكاناً للكهنة في شعب إسرائيل ثم يليه سفر العدد لينظم بنى إسرائيل ويحصيهم حسب إرادة الإله ثم يسرد جانباً من سيرة موسى وتذمرات بنى إسرائيل عليه ، أما السفر الخامس ويطلق عليه تثنية الاشتراع لأنه يعيد نص الشريعة التي وردت في اللاويين بصيغة أخرى فيجنع بشكل غير مباشر لإقرار الحكم المللكوتي في إسرائيل ويستدل علماء الكتاب المقدس على الزمن الذي دون فيه السفر (حدود القرن الثامن قبل الميلاد) بلغته والتشريعات التي وردت فيه فيقولون إنها مأخوذة عن أمم أخرى ولاسيما الشومريين والأكاديين والمصريين . (١)

وعلى الترتيب يتألف قسم الأنبياء من أسفار يشوع والقضاة وصموئيل الأول والثاني والملوك الأول والثاني وأخبار الأيام الأول والثاني وأشعيا وأرميا وحزقيال وهوشع ويوثيل وعاموس ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجاي وزكريا وملاخي .

ويتضمن هذا القسم باقى تاريخ العبريين بعد موت موسى وحتى السبي البابلي فيسرد تاريخ استيلاء العبرانيين على بعض أراضى فلسطين وحروبهم مع جيرانهم من سكانها الأصليين ثم يروى أحداث حكم القضاة الدينيين للشعب حتى تبلغ مملكة إسرائيل أقصى مجدها على عهد النبيين داود وسليمان ومن بعد سليمان تفصل إلى مملكتين على عهد رحبعام ابنه ، ثم تمضى الإصحاحات تروى ما قام بين المملكتين من حروب ومناوشات تشى بالانفصال الاجتماعى والكراهية السياسية إلى أن تنهض مملكة آشور الفتية في العراق فتستولى على مملكة الشمال (إسرائيل) وتنسى سكانها ثم تخلف آشور بابل وتكرر الفعل مع مملكة الجنوب (يهوذا) فتقضى

(١) د . حسن ظاظا (الفكر الدينى الإسرائيلى) .

على آخر كيان سياسى لليهود فى فلسطين وحتى عصرنا الحالى .

ويقسم البعض أسفار الأنبياء تلك إلى أسفار الأنبياء الأول والأنبياء الآخر الذين كثر ظهورهم مع الأيام الأخيرة لإسرائيل فى فلسطين (أيام الكيان السياسى) حيث بلغت أئام وشروى بنى إسرائيل مداها واستتبع اضطراب أحوالهم الدينية اضطراب فى أحوالهم السياسية والاجتماعية إلى أن انتهى أمرهم جميعاً إلى السى فى مدن العراق على يد آشور وبابل .

أما أسفار الكتب فتحتوى كلمات الحكمة مثل المزامير والأمثال وأيوب ونشيد الأنشاد ومراثى أرميا والجامعة وأستير ودانيال وعزرا ونحميا .

ويغلب على تلك الأسفار الطابع الأدبى شعراً أو نثراً وتروى قصص وحكم نواترت عبر الأجيال أو ارتبطت بحدوث اجتماعية وسياسية ودينية .
ولكن ..

عن أية توراة سوف نتحدث ؟

والسؤال ليس من قبل الاستنكار أو السخرية لكنه استفهام جاد كل الجدة حير كاتب هذه السطور مدة من الوقت قبل أن يصل إلى رأى .

فإيجاد لغة جيدة للتواصل مع الآخرين يستدعى أن يحدد الكاتب لنفسه أولاً القضية التى هو بصدد البحث فيها أو الحديث عنها ، وعندما سألت نفسى أمامك عن أية توراة سوف نتحدث ؟ إنما أردت أن أشركك معى منذ البداية فى تحديد الهدف ، على أن السؤال لابد أن يستتبعه سؤال آخر :

وهل هناك أكثر من توراة ؟

الإجابة : نعم ، هناك أكثر من توراة ، فهناك التوراة السامرية والتوراة العبرية ، والأخيرة تحتوى أسفاراً مقبولة من اليهود العبرانيين الذين يفرزون أنفسهم عن اليهود السامريين ، وهذه الأسفار التى يطلق عليها الأسفار القانونية الأولى هى أسفار مقبولة من كل الطوائف المسيحية أما الأسفار القانونية الثانية فهى أقل حظاً فى القبول وتسمى هذه الأسفار (الأبوكريفيا) ومعناها (المخفية) أطلق عليها هذا الاسم طائفة البروتستانت المسيحية التى رفضت هذه الأسفار باعتبارها مدسوسة على التوراة ولا ترتقى إلى مستوى الوحي الإلهى وتضم موضوعات غير ذات أهمية أو خرافات

لم يقبلها اليهود ولا أصحاب التيار الإصلاحى المسيحى (البروتستانت) . (١)

والمثير للدهشة أن المسيحيين الذين رفضوا هذه الأسفار يتعللون فى ذلك بأسباب واهية مثل أن هذه الأسفار لم يرد ذكرها عند المؤلف اليهودى الشهير (يوسيفوس) ولم يستشهد بها بعض الآباء الأوائل للكنيسة (!!)

وهكذا اعتمدوا على (مؤرخ) عار من القداسة لتقرير قضية إلهية هامة ألا وهى إلهية نصوص مقدسة !

على أن الأمر زاد تعقيداً عندما اكتشفنا أسفاراً أخرى كثيرة يقال إن اليهود والهرطقة لفقوها ورفضتها كل الكنائس المسيحية ومن هذه الأسفار عزرا الثالث والرابع وأسفار المكابيين الثالث والرابع والخامس وغيرها . (٢)

وعلى هذا الأساس السابق يحق لنا أن نكرر السؤال : عن آية تورا سوف نتحدث ؟!

لنعمق القضية فنعطئها شيئاً من العمق التاريخى .

عندنا التوراة السامرية .. وهى تنسب لليهود الذين سكنوا مملكة إسرائيل ثمزاً لهم عن هؤلاء الذين سكنوا مملكة يهوذا (٣) ، واتخذت مملكة إسرائيل مدينة نابلس (شكيم) عاصمة لها واعتقدت فى قدسية جبل جرزيم خلافاً لاعتقاد مملكة يهوذا التى قدست جبل صهيون ...

وبعد

فقد اشترى عمرى أحد ملوك إسرائيل جبلاً من شخص يدعى شامر وبنى عليه مدينة سميت على اسم صاحب الجبل ونطقت - فيما بعد - السامرة وإليها ينسب السامريون ، على أن سكان مملكة يهوذا ظلوا يسمون العبرانيين ، واختصت كل طائفة منهما بتوراتها فصارت هناك تورا للسامريين وأخرى للعبرانيين .

وتظل المعضلة قائمة والسؤال الحائر لا إجابة محددة له إلى اليوم : متى تم هذا الانفصال بين التوريتين حتى صارا على خلاف كبير فى قضايا جوهرية ؟! وأيهما على حق ؟! وأيهما على باطل ؟!

(١) الكتاب المقدس (الأسفار القانونية الثانية) طبعة مكتبة المحبة .

(٢) المرجع السابق

(٣) حتى نهاية حكم سليمان كان اليهود يعيشون فى فلسطين تحت حكم واحد وفى عهد راحبعام بن سليمان انفصلت المملكة إلى مملكة إسرائيل فى الشمال ومملكة يهوذا فى الجنوب .

التاريخ لم يعط لنا حلاً شافياً للقضية الأولى ، لكن من المؤرخين من يستسهل هذا الحل فيفتي مثلاً بأن العبرانيين والسامريين اتفقا على تحريف التوراة في زمن الأسر البابلي لليهود الذي وقع سنة ٥٨٦ ق . م واستمر لمدة سبعين سنة تقريباً وأن عزرا (الكاتب) كتب لليهود التوراة وسلمها لهم بعد عودتهم من هذا السبي فلما سكن السامريون والعبرانيون مدنهم اختلفا وحدث عداة شديدة بينهما وبسبب هذا العداة أو الاختلاف ... اختلفت التورتان !! (١)

ونحن لا نقبل بهذا الافتراض لسبب يضحله من أساسه وهو أنه يستحيل أن يكون السامريون قد استلموا توراة عزرا أو قبلوها من البداية (وبهذه السهولة) لأن السامريين لا يؤمنون إلا بالأسفار الخمسة الأولى من التوراة ، ولو حدث أنهم اختلفوا بعد عزرا لما كان الخلاف عميقاً إلى الدرجة التي يقبلون فيها خمسة أسفار من أصل تسعة وثلاثين سفاً تؤمن بقدسيتها التوراة العبرانية .

بل إن للقضية وجهاً آخر لا بد أن يطرح وهو: هل كانت التوراة السامرية هي الأصل الذي اقتدى به عزرا وجعله أساساً لعمله فأضاف إليه ونقح فيه حتى وصل إلى نص التوراة العبرانية الذي بين أيدينا ؟!

لماذا لا ؟! ولماذا نعم ؟!

إن الصعوبة في الوصول إلى إجابة للسؤال السابق يعود بالدرجة الأولى للغموض الذي أحاط بتاريخ مملكة إسرائيل خاصة بعد نفي سكانها إلى بلاد العراق على يد ملوك آشور (سبق هذا النفي البابلي لسكان مملكة يهوذا) والسرد التاريخي الذي ورد في التوراة لم يزودنا بأخبار كثيرة عن أحوال هذه المملكة .. لكن إعادة تركيب حوادث التاريخ قد تفيدنا بعض الشيء .

من هم السامريون ؟

سبق أن قلنا إنهم يتسبون إلى مدينة السامرة عاصمة مملكة إسرائيل التي قامت على أنقاضها مدينة نابلس ، ويزعم السامريون - الآن - أنهم البقية الباقية على اليهودية الصحيحة وأن الجبل الذي يقدسونه هو المكان الذي بنى عليه أباهم الأعلى (يعقوب) معبده المكرس للرب . (٢)

(١) أورد مثل هذا الرأي د أحمد خجازي في مقدمته لترجمة التوراة السامرية التي أنجزها الكاهن السامري : أبو الحسن اسحق الصوري .

(٢) د . حسن ظاظا : الفكر الديني الإسرائيلي .

ويرفض السامريون الأنبياء الذين أتوا في إسرائيل بعد موسى ويرفضون الأسفار اليهودية المقدسة الأخرى (ما عدا الأسفار الخمسة الأولى من التوراة) أى أنهم يرفضون المشنا والتلمود والمدراش بل ويعتبرونها من أعمال الكفر .

ومن هذا الرفض نبى الأساس الأول لافتراضنا وهو أن التوراة السامرية لم تُكتب أو تُجمع أثناء السبي البابلي بل حدث هذا قبل هذا التاريخ بسنين طويلة ، لأن السامريين يرفضون كل الفكر الدينى اليهودى الذى تبلور أثناء السبي البابلي ، كذلك نرفض افتراض ان هناك تقارباً ما تم فى مدن العراق التى سبى إليها أولاً سكان مملكة إسرائيل ثم سكان مملكة يهوذا بعدهم بأكثر من مائة عام ، وبين الآخرين تركيز عمل عزرا كاتب التوراة العبرانية .

والاعتقاد الذى نعتبره أقرب للصواب هو أن الأسفار الخمسة الأولى قد جُمعت بمعرفة الكهنة فى تاريخ قريب قبل انفصال مملكة اليهود إلى مملكتى إسرائيل ويهوذا ، وبسبب العداء السياسى الاجتماعى الذى قام بين المملكتين - وكان مبدؤه فى عهد رحبعام بن سليمان - تم رفض النبيين سليمان وأبيه داود من قبل مملكة الشمال (إسرائيل) وبالتالي تم رفض تاريخهما الذى قبله عزرا - فيما بعد - لكن لم ينقيه من الأسطورة . واكتفى السامريون بالأسفار الخمسة الأولى من التوراة التى نسبت جميعها لموسى وتنتهى بسفر تشريعى هو سفر تثنية الاشتراع .

إن العداء بين يهود مملكتى الشمال والجنوب لا يمكن تجاهله بل تحكى التوراة العبرانية فصوله وهى تؤرخ لمملكة يهوذا ولذلك فليس مستغرباً أن تصف التوراة العبرانية - صراحة - وفى أكثر من موضع مملكة إسرائيل بأنها مؤسسة على الكفر ورفض الدين التوحيدي والأكثر رفضاً وتنكياً للأنبياء .

وعلى الرغم من أن جماعة من اليهود ظلوا يسكنون مدن السامرة بعد السبي الآشورى لبنى جلدتهم وتدمير مملكة إسرائيل إلا أن التوراة العبرانية تسكت عن ذكر أخبارهم ويكاد التاريخ ينقطع بهم عند السبي الآشورى وكل ما تذكره التوراة العبرانية عنهم فى سفر الملوك الثانى :

«وجرى بنو إسرائيل (مملكة إسرائيل) على جميع خطايا يربعام التى صنعها ولم يحولوا عنها حتى نفى الرب إسرائيل من وجهه ، كما قال الرب على السنة جميع عبيد الأنبياء وجلا إسرائيل عن أرضهم إلى آشور إلى هذا اليوم ، وأتى ملك آشور يقوم من بابل وكوت وعوا وحماة وسفروا يثم وأسكنهم فى مدن السامرة واستوطنوا ملنها» .

فإذا قبلنا هذا النص فلا بد أن نقبله بحذر تاريخي لأنه يريد أن يقول لنا : إن سكان السامرة بعد السبي الآشوري صاروا جويم أي غرباء وبالتالي لا يتم الاعتراف بهم كيهود ولا بتوراتهم ويستمر النص فيتهمهم بصفات الكفر المتناهي والعصيان على الله .

أما السامريون (وهم الآن قلة تعد بالمئات) فينسبون أنفسهم إلى هارون أخى موسى ويعيشون فى عزلة عن باقى اليهود من كل الطوائف وعلى الرغم من أن هذه العزلة تكاد تودى بهم وتقطع نسبهم إلى الأبد فإنهم متمسكون بها تمسكهم بتوراتهم التى تختلف عن التوراة العبرانية فى أمور أهمها :

السامرية ترفض أسفار الأنبياء والكتب (أسفار الحكمة) ولا تقبل إلا الأسفار الخمسة الأولى التى ينسبونها إلى موسى وهى على الترتيب أسفار التكوين والخروج واللاويين والعدد والثنية .

تختلف نظرة التوراة السامرية عن العبرانية بالنسبة لمسألة تجسيد الإله ، أول مظهر لهذا الاختلاف تجده فى العدد الخامس من الإصحاح الحادى عشر لسفر التكوين حيث تقول التوراة العبرانية : «فتزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما» بينما تقول التوراة السامرية «فانحدر ملاك الله لنظر المدينة والبرج الذى بنى بنو آدم» فإذا كانت الصورة كما وصفتها التوراة تستدعى تجسيد الإله فى العقل فإن التوراة السامرية استبدلت كل المواضع التى أتى فيها ذكر الإله على هذه الصورة بملاك الله ، فعندما تقول التوراة العبرانية «ظهر الرب لإبرام» نجد التوراة السامرية تقول : «وتجلى ملاك الله لإبرام» كذلك فى الرؤى المنامية للملوك الوثنيين أو غيرهم عندما تقبل التوراة العبرانية أن يستعلن الله لهؤلاء ترفض التوراة السامرية وتستبدل به ملاك الرب أو ملاك الله فإذا قالت الأولى : «وأتى الله إلى لابان الأرامى فى حلم الليل» فإن الأخيرة تقول : «وجاء ملاك الله إلى لابان الأرامى فى حلم الليل» وتبلغ التوراة العبرانية قمة التجسيد للإله عندما تنص فى سفر التكوين أن النبى يعقوب صارع الله فقدر عليه وكان الله فى ذلك على هيئة إنسان : «وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه (على يعقوب) ضرب حق فخذه».

وتورد التوراة السامرية تلك القصة بتفصيلاتها التى تتفق تماماً مع تفصيلات مثلتها العبرية إلا أن الأخيرة تجعل ملاك الله هو الذى يصارع يعقوب ، ومثل هذا فى ضيوف إبراهيم عليه السلام فبينما تنص السامرية على أن جميعهم من الملائكة تجعل العبرانية الله واحداً منهم يدعوهم إبراهيم للأكل والراحة فيستجيب بل يلامس إبراهيم جسده ويفسل له رجله (!!)

وهكذا ترفض التوراة السامرية كل ما من شأنه (أنسنة) الله أو تجسيمه (ظهوره على هيئة جسم) حتى في مناسبة حديث الله لموسى في الوادي المقدس حين تصف التوراة العبرانية فتقول إن موسى ستر عينيه لأنه خاف أن ينظر إلى الرب ، تورد السامرية نفس المشهد لكن تجعل الكلام لله والصورة لملاكه .

اسم الله أيضاً هو أحد الاختلافات الجوهرية بين التوريتين ففي سفر الخروج أيضاً عندما يسأل موسى الرب عن اسمه يجاوبه في العبرانية : «أيه الذي أيه» ثم يقول له في الأعداد التالية إن اسمه «يهوه» بينما نجد أن ترجمة ذلك في التوراة السامرية هو : «الأزلي الذي لايزال» ثم «الله» وبالتالي يحل الله محل يهوه كاسم للرب .

على أن علماء الغرب الذين اضطلموا يبحث ودراسة الكتاب المقدس يتعاملون دائماً مع التوراة العبرانية على أنها النص الوحيد المعتمد وعلى سبيل المثال يقول لوسيان جوتييه (١) عن يهوه هذا أنه أحد مصدرين قديمين لكتابة التوراة والذي يحمل منهما اسم يهوه علماً على رب العبريين الوطنى القديم ويرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد ورواته كانوا من الجنوب ممن كانوا يسمون مملكة يهوذا التي كانت عاصمتها القدس (أورشليم) .

على أن هناك مصادر أخرى تُنسب إليها كتابة أسفار التوراة ومنها سفر تشية الاشتراع الذي قيل إنه أُدخل على صميم التوراة سنة ٦٢١ ق . م (٢) ضمن برنامج الإصلاح والتطوير الذي عمله الملك يوشياهو وإن كان السفر قد كُتب قبل هذا التاريخ في عهد الملك منساجد يوشياهو هذا والملكان من ملوك يهوذا وحكما في تاريخ لاحق لزمان تدمير مملكة إسرائيل وسبى شعبها إلى آشور .

وهذا ما يعتقده لوسيان جوتييه على أساس أنه في عهد يوشياهو هذا حدث تطور ديني في مملكة يهوذا مع كثرة الأنبياء ، لكن الرواية تحتاج إلى بعض الإضافات فعندما نكتشف أن هذا الإصلاح تزامن مع عشور الكاهن الأعظم حلقيا على توراة موسى وفيها كتاب الشريعة (أخبار الأيام الثاني ٢٤ - ١٨) فهنا إما أن تسقط نظرية جوتييه لأن كتاب الشريعة كان موجوداً بالفعل وسابق لعهد يوشياهو بكثير من السنين وإما أن تصدق النظرية وتسقط حكاية التوراة عن مسألة السفر الذي وجدوه في بيت الرب وتكون القصة كلها مختلقة أو من الأساطير تمهيداً للتحويل

(١) Lucieng awtien : intr aduction al' ancen Testoment .

(٢) قال بذلك أيضاً لوسيان جوتييه .

الدراماتيكي الذي أتى بعد ذلك بسنين قليلة عقاباً من الله على فساد مملكة يهوذا ومخالفتها للشرعية على صورة سبي أهلها وتدمير أورشليم .

على أننا نقترح نظرية ثالثة تفترض أن هذا السفر بالذات «تثنية الاشتراع» ربما قد أضيف في التاريخ الذي قاله جوتييه بمعرفة كهنة يثق فيهم السامريون والدليل أن هذا السفر يتحدث عن عقاب إلهي بالسبي وفي هذا التاريخ لم يكن السبي البابلي قد وقع لكن الذي وقع هو السبي الآشوري كذا بركة جبل جزريم منصوص عليها في تثنية ١١ : ٣٠ .

على أن هناك رأياً لآخرين تم نشره في مجلة الكاهن التي يصدرها المعهد الاكليريكي للأقباط الكاثوليك بالمعادي وهذا الرأي قد يعضد النظرية الثالثة التي افترضناها بالنسبة لسفر التثنية وانه قد كتب بمعرفة السامريين في زمن ما بين حكمي منسا بن حزقياهو وحفيده يوشياهو (٦٩٨ - ٦١٠ ق . م) ^(١) . وكان بعض كهنة إسرائيل (مملكة الشمال) قد فروا إلى مملكة يهوذا في الجنوب بعد سقوط مملكتهم سنة ٧٢١ ق . م ، واستقروا في يهوذا وعكفوا هناك على تأليف سفر تثنية الاشتراع وضمه إلى الأسفار الأخرى التي استقروا عليها أو كادوا ، وهي أسفار (التكوين والخروج واللاويين والعدد) ^(٢) بل ويجزم الرأي السابق أن أصل سفر التثنية (في شكله الأول) يبدأ بخطاب موسى النبي في الإصحاح الخامس من السفر وينتهي بالبركات واللعنات في الإصحاح التاسع والعشرين منه أما ما قبل ذلك وما بعده فقد تم تأليفه في أيام يوشياهو .

ويضيف الرأي السابق أيضاً أن الكهنة اللاويين الذين هاجروا من مملكة الشمال بعد تدميرها وقاموا بتأليف السفر في صورته الأخيرة فعلوا ذلك بواسطة المجموعات التشريعية التي صاحبتهم ويصف أصحاب النظرية هؤلاء الكهنة بأنهم كانوا نفعيين أنانيين غرضهم الأول الإشادة بمركز العبادة في أورشليم (حيث يقيمون) ليحلبوا لأنفسهم المنفعة .

ولكي نبحت الفرضية الأخيرة لابد لنا أن نعود لإصحاحات السفر وننظر في مكانة الكهنة فيه ومسألة مركزية العبادة .

وبعيداً عن جداول الإحصاء والأرقام العقيمة فنظرة سريعة للنص ستظهر لنا كيف تم التركيز على نصيب اللاوي (ومنهم الكهنة) وتكريس مركزية العبادة في أورشليم مراراً وتكراراً ، وقد

(١) أمتد حكم منسا من سنة ٦٩٨ إلى ٦٤٣ ق . م ثم تلاه آمون فأعقبه يوشياهو الذي حكم من سنة ٦٤١ إلى ٦١٠ ق . م .

(٢) هذه النظرية تعضد رأينا القائل بكتابة الأسفار الخمسة الأولى من التوراة قبل السبي البابلي .

ورد ذلك على سبيل المثال وليس الحصر فى المحطات التالية :

بعد موت هارون (أول الكهان) واستلام إلعازار ابنه عوضاً عنه (كما يقول السفر) وارتحال الشعب فى أرض التيه إلى بطبات، يقول السفر على لسان موسى فى إصحاحه العاشر :

«إن الرب أفرز سبط لاوى ليحملوا تابوت عهد الرب ولكى يقفوا أمام الرب ليخلصوه ويباركوا باسمه إلى هذا اليوم . لأجل ذلك لم يكن لللاوى قسم ولا نصيب مع إخوته . الرب هو نصيبه كما كلمه الرب إلهك» .

وعن مركزية العبادة فى أورشليم يقول السفر أيضاً على لسان موسى فى إصحاحه الثانى عشر :

«بل المكان الذى يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون وإلى هناك تأتون وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ورفائع أيديكم ونوافلكم وأبكار بقركم وغنمكم وتأكلون هناك أمام الرب إلهكم وتفرحون بكل ما تمتد إليه أيديكم أنتم وبيوتكم كما بارككم الرب إلهكم» .

ويربط السفر بين نصيب اللاوى ومركزية العبادة فيقول فى نفس الإصحاح السابق :

«وتفرحون أمام الرب إلهكم أنتم وبنوكم وبناتكم وعبيدكم وإماءكم واللاوى الذى فى أبوابكم لأنه ليس له قسم ولا نصيب معكم» .

فإذا كان للاوى نصيب فى الفرحة فى النص السابق فإن نصاً لاحقاً ورد فى نفس الإصحاح يجعل له نصيباً فى الطعام (العدد ١٧ و ١٨) وكان النص أكثر صراحة عندما حدد مقدار هذا النصيب وأضاف إليه النذور والنوافل ورفائع اليد :

«لا يحل لك أن تأكل فى أبوابك ^{حنطتك} عشر حنطتك وخمرتك وزيتك ولا أبكار بقرتك وغنمك ولا شيئاً من نذورك التى تنذر ونوافلك ورفائع يدك بل أمام الرب إلهك تأكلها فى المكان الذى يختاره الرب إلهك أنت وابنك وابنتك وعبيدك وأمتك واللاوى الذى فى أبوابك» .

.. أنظروا هذه التخريجة الكهنوتية العجيبة التى يستحيل إلا أن تكون من اختراع عقل بشرى مدرب ، يقول سفر التثنية فى إصحاحه الثالث عشر مخاطباً اليهودى (والمفروض أن الكلام لموسى) :

دوتاكل أمام الرب إلهك فى المكان الذى يختاره ليحل اسمه فيه عَشر حنطتك
وخمرك وزيتك وأبكار بقرك وغنمك لكى تتعلم أن تتقى الرب إلهك فى كل
الأيام. ولكن إذا طال عليك الطريق حتى لا تقدر أن تحمله إذا كان بعيد عليك
المكان الذى يختاره الرب إلهك ليجعل اسمه فيه إذ يباركك الرب إلهك فبعه
بفضة وصر الفضة فى يدك واذهب إلى المكان الذى يختاره الرب إلهك وانفق
الفضة فى كل ما تشتهى نفسك فى البقر والغنم والخمر والمسكر وكل ما تطلب
منك نفسك . وكل هناك أمام الرب إلهك وافرح أنت وبيتك واللاوى الذى فى
أبوابك لا تتركه لأنه ليس له قسم ولا نصيب معك» .

وأعد قراءة النص وانظر هل يمكن أن يصدر عن الله أمر يدعو فيه عبده لتلبية شهوات النفس
فى بيت عبادته ؟!

والأهم من ذلك كله هو ألا ينسى نصيب اللاوى الذى صار تاجراً فيما بعد - يبيع الحمام
واليمام والمسكر فى بيت الله (باع الله بفضة) ويشهد على ذلك أيام يسوع المسيح وكلماته .

على أن الدعوة لبركة جبل جرزيم فى النص تتناقض مع مسألة مركزية العبادة !! والحقيقة أن
الأمر كله لا تناقض فيه فكتابو السفر - كما أسلفنا - هم المجموعات التشريعية القادمة من مملكة
الشمال (إسرائيل) وكانوا قد استقروا فى مملكة الجنوب يهوذا بعد تدمير مملكتهم وفى يهوذا حولوا
القبلة إلى أورشليم وجعلوها مركزاً للعبادة حتى يجتمع إليهم اليهود .

على أن مسألة مركزية العبادة لم تُعرف حتى موت موسى (لم يدخل اليهود الأرض المقدسة
حتى موته) بينما الذى فعل ذلك الكهنة فى وقت متأخر .

ويتواتر ذكر العبارات التى تدعو إلى مكان محدد للعبادة فى سفر التثنية فى الأعداد
١١، ١٢، ١٣، ١٨، من الإصحاح الثانى عشر على أن ذلك يخالف نصاً صريحاً ورد فى سفر
الخروج يأمر فيه الرب موسى :

«مذبحاً من تراب توضع لى وتلبع عليه محرقاتك وذبائح سلامتك وغنمك وبقرك
فى كل الأماكن التى فيها أصنع لاسمى ذكراً أتى إليك وأباركك» (١) .

بل يزيد النص فيأمر ألا يبنى المذبح من حجارة منحوتة أو مدنسة ولا يضع عليه درج حتى لا
تنكشف عورة الصاعد عليه .

(١) خروج ٢٠ : ٢٤ .

فلماذا يناقض الرب نفسه فى سفر التثنية ويأمر بمركزية العبادة فى أورشليم ؟!

ولم يكتف الكهنة اللاويون بحقوقهم المادية أمام الشعب فراحوا يبحثون عن المكانة السياسية مقابل الحاكم عندما طلب الشعب قادة دنيويين (ملوك) يملكون عليه على أن هذا النوع من الحكام لم يعرف فى اليهودية إلا بعد سنين طويلة من موت موسى الذى خلفه القضاة فى الحكم .

يقول نص التثنية فى إصحاحه السابع عشر :

«وعندما يجلس على كرسى مملكته يكتب لنفسه نسخة من هذه الشريعة فى كتاب من عند الكهنة اللاويين فتكون معه ويقرأ فيها كل أيام حياته لكى يتعلم أن يتقى الرب إلهه ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة وهذه الفرائض يعمل بها» .

بقى أن نعود لحوادث التوراة السامرية ونبحث أين انتهت حوادث التاريخ المدونة فى هذه التوراة ، لقد انتهت بموت موسى بعد الوصية ليشوع بن نون ، وفى آخريات هذه التوراة نقراً :

«وكان عند انتهاء موسى من كتابة خطوب التوراة هذه فى مدرج حتى كمالها وصى موسى اللاويين حاملى صندوق عهد الله قولاً تسلموا مدرج الشريعة هذا واجعلوه جانب صندوق عهد الله إلهكم فيكون هناك عليك شاهداً ... أنى علمت خلقت وعرفك القاسى . أنا بحالى حتى معكم اليوم مخالفين كتتم الله فكيف بعد وفاتى» . (١)

وتنتهى التوراة السامرية وهى تقر : ولا يقوم نبي فى إسرائيل مثل موسى ، بينما تبقى التوراة العبرانية الباب موارباً فتقول : ولم يقم بعد نبي فى إسرائيل مثل موسى ، وتستمر أسفارها تروى تاريخ اليهود حتى العودة من السبي البابلي .

وحتى زمن السبي البابلي كان اليهود شبه متفقين على الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، وفى السبي لم يحدث اختلاط كبير بين أهل يهوذا المسيبين حديثاً وأهل إسرائيل الذين تم سبيهم قبل ذلك بسنين كثيرة ومازال هذا الشقاق قائم حتى إيان العودة من السبي نجد ذلك فى دعوة عزرا كاتب التوراة :

(١) التوراة السامرية تثنية ٣١ : ٢٤ - ٢٧ ت . أبو الحسن اسحق الصورى .

**«فقام رهوس آباء يهوذا وبنيامين والكهنة واللاويون مع كل من نبه الله روحه
ليصعدوا لينوا بيت الرب فى اورشليم» . (١)**

ويهوذا وبنيامين هما السبطان اللذان كانا يسكنان مملكة يهوذا بالإضافة إلى الكهنة واللاويين
الذين هربوا من إسرائيل وانضموا إلى تلك المملكة .

ومن ذلك نفهم أن عزرا أثناء السبي كانت له وجهة نظر فى التوراة فأعاد صياغة الأسفار
الخمس الأولى منها وأضاف لها ما أضاف قبل العبرانيون كتاب التوراة كما رتب عزرا فى نسخته
الآخيرة بينما رفض ذلك السامريون واحتفظوا بنسختهم التى حوت الأسفار الخمسة الأولى قبل
تدخل عزرا فيها وعاد من عاد منهم إلى فلسطين يحمل هذه النسخة أو يطوف بها البلاد إلى أن
وصلت لنا فى صورتها الأخيرة .

والآن نستطيع أن نحيب على السؤال الذى طرحناه فى البداية فنقول :

إننا سوف نتحدث عن التوراة العبرانية ، توراة الأغلبية اليهودية والتى يؤمن بها العالم المسيحى
فيسمىها العهد القديم تميزاً لها عن العهد الجديد (الانجيل) وسوف نعتمد فى ذلك على الترجمة
البروتستانتية لهذه التوراة رغم وجود بعض الفروق الطفيفة فى هذه الترجمة عن النص الأصيل
(العبرى) بما يتوافق مع بعض المعتقدات المسيحية ، وعلى سبيل المثال فسفر التكوين ينص فى
افتتاحيته المترجمة على : «روح الله يرف على وجه المياه» .

بينما الترجمة الصحيحة عن النص العبرانى : «ورياح الله هبّة على وجه الماء» فالترجمة
المسيحية تخدم هنا المعتقد المسيحى فى روح الله القدس .

على أننا لا نستطيع أن نغفل أن هناك ترجمة أخرى للتوراة هى الترجمة اليونانية وهى من أقدم
الترجمات وفيها بعض الاختلافات عن الأصيلين السامرى والعبرانى ولكن لأن غرضنا ليس
المقارنة بين الترجمات ولكن البحث فى النص التوراتى العبرانى الذى وصلنا فسوف نتجاوز
سريعاً هذه النقطة ■

(١) عزرا ١ : ٥ .

الفصل الثاني

(١) توراة موسى .. وتوراة عزرا

(٢) الوصايا العشر

(١) توراة موسى.. وتوراة عزرا

هناك ناموس وشريعة - لا شك - تركهما موسى نستطيع أن نقول إنهما يمثلان توراته ، وكلمات هذه التوراة الموسوية كانت أقل بكثير مما وصل إلينا الآن وعلى ذلك نستطيع أن نأخذ الدليل من النص الذى بين أيدينا حين يذكر أن موسى طلب من الشعب فى وصيته الأخيرة أنهم حين يعبرون نهر الأردن يشيدون حجارة كبيرة ويكلسونها بالشيد ويكتبون عليها جميع كلمات الناموس نقشاً جيداً^(١) كما أن تابوت العهد لم يكن يحوى فى الأساس أكثر من لوحى الحجر الذى نقشت عليهما الوصايا العشر .

وربما اقتصرت توراة موسى على الوصايا العشر التى نقشت على لوحى حجر احتواهما تابوت العهد ونصوص الشريعة التى تخدم قضيتى التوحيد والإيمان .

أما عزرا صاحب التوراة العبرانية فى صورتها الأخيرة فهو رجل صاحب أيديولوجية سياسية دينية كان جل هدفها أن تجمع شتات بنى إسرائيل من النفى فى بلاد العراق ، تجمعهم نفسياً قبل أن تجمعهم عديداً وتقنعهم بالعودة إلى فلسطين - أرض الميعاد - ولكى يجعل عزرا لدعوته تلك أسباباً قوية فقد شرع يجمع للمسيين تاريخاً مقدساً يربطهم بأول الزمان وآخره فيبرز فيه المواعيد المقدسة بين الإله وإسرائيل وفى هذا التاريخ اختلط اللاهوت بالسياسة والحكمة بالأسطورة وفلسفات المدينيات التى تأثر بها اليهود فى تاريخهم .

كان عزرا يجمع الأسفار والمدونات التى يشته فى قدسيته وتتفق مع فكره وتقبل هوى الجماعة اليهودية فينتقح فيها ويحذف ويضيف بمقدار ، ولم يلق معارضة حيث كان أكثر الشعب المنفى قد ابتعد عن دياناته وأكثرهم لم يعد يتحدث العبرية بينما عزرا كان قد اشتهر بينهم بأنه كاتب ماهر فى شريعة موسى .

وعلى الأسس السابقة نستطيع أن نفسر ذلك الخليط غير المتناغم فى لغة الأسفار وفى

(١) سفر التثنية ٢٧ : ١ - ٨ .

محتواها ؛ وأما علم اللغة فتركه لأهله ولتنظر فى المحتوى ونحاول أن نناقشه متجردين من الهوى وعلى النص أن يثبت لنفسه القداسة التى يستأهلها أو ينفيها .

نحن أيضاً لن نتمسك بالتفاصيل الصغيرة ولن تستهويننا جداول المقارنات للأسماء والتواريخ والمواقع الواردة فى الكتاب تلك التى يتمسك بها المهاجمون ويجهد المدافعون أنفسهم فى البحث عن تأويل لها من منطلق أن النص مقدس لا يأتية الباطل من أى الجهات ، ولنبدأ بحجر الأساس فى التوراة .. الوصايا العشر .

(٢) الوصايا العشر

أول ذكر للوصايا العشر تجده في الإصحاح العشرين من سفر الخروج الذي ينص على :
ولا يكن لك آلهة أخرى أمامي . لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في
السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض . لا تسجد
لهن ولا تعبدن لأنني أنا الرب إلهك إله غيور أفعد ذنوب الآباء في الأبناء في
الجيل الثالث والرابع من مبغضى وأصنع إحساناً إلى ألوف من محبى وحافظي
وصاياي . لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه
باطلاً . أذكر يوم السبت لتقلمسه ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم
السابع ففيه سبت للرب إلهك لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وامتك
وبهيمنتك ونزيلك الذي داخل أبوابك لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض
والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع . لذلك بارك الرب يوم السبت وقلمسه .
أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك . لا تقتل .
لا تزني . لا تسرق . لا تشهد على قريبك شهادة زور . لا تشته بيت قريبك . لا تشته
امراً قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك . (١)

احفظ السبت

ولأن سفر تثنية الاشتراع قد أعاد ذكر نصوص الشريعة فقد كان لابد أن يعيد نص الوصايا
العشر وبالفعل وردت تلك الوصايا في الإصحاح الخامس من هذا السفر بتطابق شبه تام في كل
الوصايا ما عدا الوصية التي تتعلق بتقديس اليوم السابع (السبت) والتي وردت في نص التثنية
على الصورة التالية :

« ستة أيام تشتغل وتعمل جميع أعمالك . وأما اليوم السابع فسبت للرب إلهك .
لا تعمل فيه عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وامتك وثورك وحمارك وكل

(١) سفر الخروج الإصحاح ٢٠ : ٣ - ١٦ .

بهاثمك ونزيلك الذى فى أبوابك لكى يستريح عبدك وأمتك مثلك . وأذكر
أنك كنت عبداً فى أرض مصر فأخرجك إلهك من هناك بيدٍ شديدة وذراع
ممدودة لأجل ذلك أوصاك الرب إلهك أن تحفظ يوم السبت .

وتندهش ، لماذا هذا الاختلاف فى الوصية المتعلقة بيوم السبت ؟!

لقد أثارت هذه الوصية جدلاً واسعاً لم يتته إلى اليوم وذلك بسبب تطبيق بعض اليهود
المتعصبين لها تطبيقاً متشدداً يصل إلى حد أن بعضهم قالوا بأن الله حفظ يوم السبت فى السماء
قبل أن يخلق العالم (!!) وإن الله ما اختار اليهود شعباً له إلا ليحفظوا السبت (!!)

ولابد أن نختار بين نص الخروج ونص التثنية فيما يتعلق بالطقس السبتى ونتساءل لماذا أوصى
الله بحفظ السبت ؟ هل لأنه كان يوم راحته بعد أن خلق الدنيا والخلق فى ستة أيام وعلى مثاله
يسبت اليهود للتقديس والبركة ؟! أم أن تشريع السبت كان بسبب إخراج الله لليهود من مصر
ولذلك أمرهم أن يحفظوا ذلك اليوم ؟!

إن هناك شروحات أخرى لمسألة السبت فى إطار الأسطورة ، وفرويد العالم اليهودى يميل إلى
أن يرى فى الأسطورة تعبيراً عن دوافع لا عقلانية معادية للمجتمع وليس تعبيراً عن حكمة
أزمان ماضية ؟! (١)

والطقس السبتى يبدو مقنعاً كإجراء طبيعى اجتماعى صحى يهدف إلى الراحة الجسدية
والذهنية التى يحتاج إليها البشر لمواصلة الحياة ، لكن ثمة أسئلة أخرى تفرض نفسها على القضية
.. هل كان أمر هذا الطقس ضرورياً إلى الدرجة التى توجب ذكره ضمن وصايا التوراة العشر ؟!
ثم ما وجه العلاقة بين هذه الوصية وبين استراحة الرب فى اليوم السابع بعد الخلق ؟! أو التحرر
من عبودية مصر ؟!

أما تفسير الطقس السبتى فى إطار الأسطورة فيفترض أن السبت لما كان يوم عطلة عند البابليين
وهو يوم خضوع لقوى زحل ، وزحل يرمز إلى الزمن طبقاً لتقليد ميتافيزيقى فلكى قديم
(إله الزمن) وعلى هذا فزحل إله الموت ومن يوقف عمل الطبيعة يوماً كاملاً (بالتعطل عن عمل
أى شئ) فهو يوقف الزمن ويعطله وبالتالي فإن سبت الكتاب المقدس يرمز إلى انتصار الإنسان
على الزمن ويلغى الزمن فينزل زحل عن عرشه ولاسيما اليوم الذى كُرس له . (٢)

(١) أريش فروم - الخطابات والأساطير والأحلام ت . د . صلاح حاتم .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٥ .

فهل نستطيع أن نقبل هذا التفسير الأسطوري المنمق لوصية السبت التي طبقت - كما قلنا - بمبالغة قسرية شاذة لطقس كان في الأصل معقولاً وسليماً أريد به راحة الإنسان فتحول إلى شيء مزعج للإنسان نفسه .

إن اليهود أنفسهم يعترفون بتأثرهم بالبابليين والمصريين حتى في أساطيرهم ، وقد يكون هذا الطقس قد تسرب إلى كتابهم المقدس من الحضارة الأولى (البابلية) خاصة وأنهم احتكوا بها سنين طويلة وعاشوا في كنفها سنين أخرى .

لقد تغلغلت الأسطورة من اليهود وخاصة الرقم سبعة والسبوت حتى إنها دخلت في صميم التشريعات التي قيل إنها إلهية (فيما يتعلق بتحرير العبد العبراني وراحة الأرض .. إلى آخره) وعلى الأساس السابق أيضاً فسر الكتاب المقدس مسألة السبي البابلي الذي استمر حوالي سبعين عاماً ، فاعتُبر أن الأرض في هذه المدة كانت تستوفى سبوتها وهذا مما يتفق مع اعتقادات الكهنة ويحاول أن يرجع عذابات اليهود لقانون إلهي محكم ويرد هذا في نهاية سفر أخبار الأيام الثاني الذي يروي في عجالة كيفية سقوط مملكة يهوذا على يد الكلدانيين (البابليين) إلى أن يقول السفر:

«وسبي الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيداً إلى أن ملكت مملكة فارس . لإكمال كلام الرب بقم أرميا حتى استوفت الأرض سبوتها لأنها سبتت في كل أيام خرابها لإكمال سبعين سنة» .

ونحن لن نقف طويلاً عند التحليل الميثولوجي للكتاب المقدس حتى لا نتوه عن رسالتنا . ولذلك نعود لباقي الوصايا التسع لنعد قراءتها من خلال النص التوراتي .

لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ...

وهي وصية - لا شك - تدعو إلى التوحيد ونبذ الآلهة الأخرى المادية التي انتشرت في عهد بعثة النبي الرسول موسى سلام الله عليه ، وتمضي الوصية تأمر بنبذ الآلهة المادية المصورة في التماثيل المنحوتة أو أية صورة أخرى مما في السماء أو على الأرض أو في الماء تحت الأرض .. وتمنع الوصية صور العبادة والسجود لهذه الآلهة ثم توضح الجزاء والعقاب المتعلقين بتنفيذ أو ترك الوصية ، أيضاً تأمر الوصية بعدم نطق اسم الإله باطلاً ، وكل ما سبق من مفردات التوحيد الذي هو القضية الأولى والهدف الأول لرسالات السماء ودعوات أنبياء الله ، فهل كرسّت التوراة في نصوصها تلك الوصية ؟! والسؤال واضح ، فنحن نسأل

عن النص وليس البشر ، فاليهود شعب تاريخهم حافل بأيام الكفر والارتداد حتى والنبى الذى بعث فيهم بالشرية - موسى - بين ظهرايتهم بصنع على أعينهم المعجزات .
إن الوصية لابد تنقلنا إلى صفات واسم الإله الذى تحدثت عنه التوراة وقراءة سريعة للنص التوراتى سوف تدخلنا فى مشاكل عديدة أهمها :

- هل اليهود قوماً موحدين ؟! وهل كتابهم المقدس خال من الشرك ؟!

وخذ مثلاً هذا النص المنسوب لنبى الله سليمان يقول فيه :

«والبيت الذى أنا بانيه عظيم لأن إلهنا أعظم من جميع الآلهة» (١) .

وعندما تتساءل التوراة :

«من مثلك بين الآلهة يا رب» .

أو : «أيها الرب إله إسرائيل لا إله مثلك فى السماء والأرض» (٢) .

إلى أن نصل لهذا النص المثير للريبة المنسوب لنبى الله داود ومذكور فى المزمور ١١٠ من الترجمة البروتستانتية للكتاب المقدس ويقول :

«قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك» .

فمن يجلس عن يمين من ؟! ، والعبارة كما تشير الموسوعة اليهودية صعبة على الفهم ، على أن أحد المراجع يفترض أن الخطأ جاء من الترجمة السبعينية (٣) التى ترجمت النص العبرى الرسمى للتوراة إلى اليونانية خلال القرن الثالث قبل الميلاد ومنها انتقل الخطأ إلى اللغات الأخرى بحيث أصبح خطأ قطعياً لا عودة فيه . (٤)

فهل نستطيع أن نتخذ هذا النص دليلاً على شرك العهد القديم ؟!

لترو قليلاً فى حكمنا على هذا الأمر الخطير ونرجع الأمر لخطأ الترجمة وصعوبة النص على الفهم ولننظر مسألة أخرى .

(١) أخبار الأيام الثانى ٢ : ٥ .

(٢) النص السابق ٦ : ١٤ .

(٣) سميت كذلك لأنه أنجزها حوالى سبعين شخصاً .

(٤) التوراة بين الوثنية والتوحيد - سهيل ديب .

ولا شك إله موسى إله توحيد لا علاقة له بإله بنى إسرائيل العنصرى ، فالإله إله الخلق جميعاً والقول بغير ذلك يفتح باب الاعتراف بالآلهة الأخرى الوثنية المادية والبشرية (فرعون كان يدعى الألوهية لنفسه) ولم يصلنا فى التوراة نص محدد يخبرنا عن صفات الإله الذى دعا موسى لعبادته ولكن حمل النص التوراتى صفات للإله مشورة بين السطور وفى ثنايا الحوادث ؛ ومنها أيضاً عرفنا أسماءه التى كان أول ظهورها فى سفر التكوين هو «إيل» والكلمة تعنى فى اللغات السامية (الله) ويقال هى التسمية التى استخدمها الموحدون الحقيقيون ^(١) ، فلما اعتقد البعض أن الله أو إيل لابد أن يساوى كل الآلهة أطلقوا عليه اسم «إيلوهم» وتعنى (الآلهة) على أننا نجد أيضاً فى التوراة كلمة «أدوناي» وتعنى السيد بلغة الساميين أيضاً وقيل إنها حلت محل يهوه فى الكتاب المقدس حين كان الاسم الأخير محرم نطقه على عامة الشعب ، والحقيقة أن أدوناي هو الاسم الذى أطلقه الكنعانيون على إلههم «تموز» والذى حرفه اليونانيون عندما انتقل إليهم فجعلوه «أدونيس» . ^(٢)

لكن هناك نصاً فى سفر الخروج جاء فى موضع تكليف موسى بالرسالة وسؤاله لربه عن اسمه الذى يبلغ به رسالته فجأوبه الإله قائلاً :

«أهيه الذى أهيه . وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلنى إليكم» .

على أن العدد الذى يليه مباشرة يأتى باسم جديد للإله عندما يقول - أيضاً - لموسى :

«وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله

إسحق وإله يعقوب أرسلنى إليكم . هذا اسمى إلى الأبد» .

وهذا ما نجد فى الترجمة البروتستانتية للتوراة أما فى الترجمة الكاثوليكية فنجد شيئاً آخر فالاسم فى العبارة الأولى يتم استبداله بصفه فيتحول من «أهيه الذى أهيه» إلى «أنا هو الكائن» وتستكمل العبارة على ذلك : **«وقال كذا قل لبني إسرائيل الكائن أرسلنى إليكم» .**

ولا نستطيع أيضاً أن نغفل ترجمة التوراة السامرية التى تثبت اسم الله فى جميع تلك المواضع .

على أن الأمر لم يخلو من اجتهادات أخرى فى الترجمات الفرنسية والإنجليزية للعهد القديم فيما يتعلق باسم الإله .

(١) المرجع السابق .

(٢) نفس المرجع السابق .

لكن من بين كل تلك الأسماء ظل اسم يهوه هو الاسم الأكثر تقدساً حتى أن اليهود حرّموا نطقه على العامة وجعلوا عقاباً صارماً على من يخالف ذلك وقيل إن السبب في ذلك هو اختلاف الاسم حسب الطوائف والقبائل العبرانية الإسرائيلية مما دفع بالزعماء اليهود إلى منع إعطاء الجلالة أية تسمية ريثما يتم الإجماع على واحدة منها (١) .

لكننا لا نستبعد تأثير الكهنة في هذا الأمر لقصر معرفته عليهم وجعله سرّاً يتاجرون به على العامة .

ويرجع الباحثون وخاصة (فلهاوزن) في كتابه عن تاريخ إسرائيل لاسمى الرب يهوه وإيلوهيم أنهما مصدران من مصادر التوراة الأساسية الأربعة (٢) بمعنى أنهما عنوانان على العصر الذي كُتبت فيه أجزاء من التوراة ، فمثلاً المدرسة اليهودية التي يعود إليها الفضل في تأليف أجزاء التوراة الأولى يسيطر فيها الإله يهوه على الأمور علماً على رب العبريين الوطنى القديم ولغة هذه المدرسة في التأليف تتسم بالفجاجة والألفاظ المباشرة التي تصف الأفعال وصفاً صريحاً دونما تنميق من مثل :

«فكان أونان إذا دخل على امرأة أخيه أفسد على الأرض لثلا يجعل نسلًا لأخيه» . (٣)

أما أجزاء النص التوراتى التي يسود فيها اسم الإله «إيلوهيم» فهي أكثر عمقاً عندما تعتمد على التثنية والتورية لتوجيه رسالتها ، وعلى الإجمال فيهوه وإيلوهيم هما الإلهين اللذين يسيطرا على سفرى التكوين والخروج بشكل أخص . (٤)

على أن أمانة البحث تستلزم منا ألا نفعل الدفع المسيحية بخصوص مصادر كتابة التوراة (تأليفها) وأحد المدافعين (٥) اعتبر أن الادعاء بذلك تهمة مع أن هذه (التهمة) قال بها من أطلقوا على أنفسهم دارسى الكتاب المقدس ونشرت على صفحات إحدى المطبوعات المسيحية (٦) ، وهكذا تم تداول القضية داخل أروقة البحث العلمى (المسيحى) ، ويورد أحد المدافعين الاتهام أولاً فيقول :

(١) قال بذلك سهيل ديب في بحثه المشار إليه آنفاً .

(٢) هذه المصادر على التوالى : اليهودى والألوهيمى والتثنوى والكهنوتى .

(٣) تكوين ٣٨ : ١٥ - ١٦ .

(٤) التوراة بين الوثنية والتوحيد - سهيل ديب

(٥) المدافع هو واعظ الأقباط يس منصور .

(٦) الناشر مجلة صديق الكاهن التى يصدرها المعهد الإكليركى للأقباط والكاثوليك .

«أرادوا أدعاء الدراسات الحديثة أن ينسبوا أقوال الله لموسى إلى عدة مصادر لينفوا أن موسى هو كاتبها فادعوا أن الأسفار التي تذكر الله باسم يهوه في مصدره والتي تذكره تعالى باسم إيلوهيم من مصدر آخر» .

وعلى هذا يرد الكاتب القبطي فيقول :

«إنه ليس أكذب من هذا القول فالله في سفر التثنية يعبر عنه تعالى باسم «يهوه» واسم «إيلوهيم» على السواء فقلوله : اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد هو حسب النص العبرى : «اسمع يا إسرائيل «يهوه» «إيلوهينا» يهوه أحد» .

انتهى دفاع الكاتب القبطي الذى لو نظر قليلاً بعقل مجرد لاكتشف التصرف المسيحى فى النص العبرانى فالترجمة حذفت «إيلوهينا» واستبدلته بـ «إلهنا» للتخفيف من المعضلة أو فى محاولة منها لمعالجة الترقيع الكهنوتى لاسم الإله (يهوه وإيلوهيم) اللذين كانا بالتأكيد قد وصلا للكهنة عند كتابة سفر التثنية فى زمن متأخر قليلاً بعد زمن كتابة سفرى التكوين والخروج ، وهنا أورد الكهنة الاسمين على انهما اسم واحد للإله .

على أن نفس الكاتب القبطي (مجتهداً) حاول أن يجد تخریجة أخرى للأمر فقال فى معرض دفاعه أيضاً ما نصه :

«ويهوه وإيلوهيم اسمان من أسماء الجلالة فيهوه الله بصيغة المفرد للدلالة على وحدانيته تعالى فى الجوهر وإيلوهيم بصيغة الجمع للدلالة على تثليث الأقانيم فلا اختلاف» . (١)

وهنا أوجد الكاتب للقضية اليهودية حلاً مسيحياً فأخضع النص التوراتى (العبرانى) قسراً لمعتقد المسيحى فكان فى ذلك مثل الكهنة عندما حاولوا حل المشكلة فقالوا عن الله انه يهوه وإيلوهيم معاً .

ومن رحلة اسم الإله نعود مرة أخرى إلى صفاته التوراتية ملتصقين فى ذلك بالنص الذى بين أيدينا دوغما التطرق إلى الفلسفات اليهودية التى تأثرت فى وقت متأخر بالنظرة الإسلامية لصفات الذات العلية وإنما الدخول أيضاً فى مقارنات من أى نوع .

فى الإصحاح الثالث العدين ٨ ، ٩ من سفر الخروج نقرأ الآتى :

(١) يس منصور فى كتابه (التوراة فوق الفكر الدينى) .

«وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار فاخْتَبَأَ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة فنَادَى الرب الإله آدم وقال له أين أنت» .

وبعيداً عن أية إشكاليات للترجمة فالفقرة السابقة تصف مشهداً لا يحتمل التأويل ؛ فيه الرب الإله يمشى ولمشييه صوت ويختبئ آدم من وجهه فيبحث عنه خلف أشجار الجنة بل ويسأله عن مكان إختبائه (!!)

إن إشارات اللغة تنقل للعقل بلا مواربة صفات الإله فهو فى مكان ما من الجنة (حيز) ويمشى ولمشييه صوت فهو (جسم) ويحد بصره الشجر فيحد علمه (بصره وعلمه مقيدان) ... وبعد فالصورة أقرب ما تكون إلى إنسانين يتناوران فى ندبة وتشابه (!!)

هذا أول وصف للإله فى التوراة وأول سقطة للنص لم يتم تسديدها فيما بعد لكن أضيف إليها ما يرسخها ويكرسها حتى لو تساءلت النصوص فى الأسفار الأخيرة أسئلة تحاول أن تنفى عن الله صفات الأنسنة والتجسيم .

وتتحرى مثل تلك المشاهد التوراتية ترسم صورة الإله المادية لبنى إسرائيل فى بحثهم الدائم عن هذا الإله المادى ؛ يمسكونه بأيديهم وتلمسه أبصارهم على مثال الشعوب التى جاورها فتأثروا بوثنيتها :

ثم صعد موسى وهارون وناداب وأيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجله شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة ، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا» . (١)

وإليك أيضاً هذه المجادلة التى أوردتها التوراة ؛ بين موسى والإله تصور الذات العلية وكأنها واحد من شيوخ إسرائيل أو واحد من الشعب :

«وقال الرب لموسى اذهب قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأقنيهم فتضرع موسى أمام الرب إلهه وقال : لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة .

لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بغيث ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه

(١) خروج ٢٤: ٦ - ١١ .

الأرض ؛ ارجع عن حمو غضبك واتلم على الشر بشعبك فندم الرب
على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه». (١)

وفى مناسبة أخرى تقول التوراة :

«فاغتاظ موسى جداً وقال للرب لا تلتفت إلى تقدمتهما». (٢)

إن النصوص تعكس المفهوم الأسطورى التوراتى عن شكل الاتصال بين موسى والرب بل
تصف التوراة - فى نص صريح - هذا عندما تقول :

«ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه» (٣).

على أن التوراة لا تنشئ توقعنا فى بليلة حين تبدو متناقضة فيقول لنا نص تال للنص السابق
(فى نفس السفر بل والإصحاح ذاته) حينما يحدث الرب موسى فيقول له :

«لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش». (٤)

... ليكن الأمر يتعلق بمجد الله وبجسمه أما الوجه فلا يصح أن يُرى وهذا أيضاً حسب كلام
التوراة فهى القائلة على لسان الرب لموسى :

«وقال الرب هو ذا هندي مكان فتقف على الصخرة ويكون متى اجتاز مجدى أنى
أضعك فى نقرة من الصخرة وأسترك يدي حتى أجتاز ثم أرفع يدي فتتظر ورائى ؛
وأما وجهى فلا يرى». (٥)

فهل هذا الإله يختلف عن إله الآباء إبراهيم ويعقوب ؟!

فيكون مثلاً الآخر إيل والأول يهوه ؟!

ما علينا ، ولكن ليفسر لنا أحد مسألة رؤية نبي الله إبراهيم للإله (كله) بما فيه وجهه وباقي
أعضائه ، والقصة التوراتية تقول لنا عن ذلك :

(١) خروج ٣٢ : ٩ - ١٤ .

(٢) سفر العدد ١٦ : ١٥ .

(٣) خروج ٣٣ : ١١ والتوراة السامرية تورد هذا النص هكذا : «ويخاطب الله موسى شفاها كما يخاطب
الرجل صاحبه» .

(٤) الخروج ٣٣ : ٣٠ .

(٥) خروج ٣٣ : ٢١ - ٢٣ .

«وظهر له الرب عند بلوطات عمراً وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار فرفع
صينيه ونظر (إبراهيم) وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ؛ فلما نظر ركض
لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال يا سيد ... إلى آخره» .

ومن بقية القصة التوراتية نعرف أن الثلاثة أحدهما الرب والآخرين من ملائكته بل أكثر
من ذلك أن إبراهيم صنع لهم طعاماً فأكلوا .. والأكل يكون بالفم والفم في الوجه ...
هل نقول أكثر أو هل هناك شك في أن إبراهيم رأى وجه الإله ؟! وهل هناك تأويل للمسألة
غير ذلك ؟!

إن إبراهيم قد عاش بعد تلك الرؤية ولم يمض بل أنجب بعدها إسحق ومن إسحق جاء يعقوب
الذي فاقت رؤيته للإله رؤية جده إبراهيم فقد لمس يديه فقبض عليه وصارعه فصمد له ولم يقدر
الإله عليه (!!)

«بقى يعقوب وحده ؛ وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه
ضرب حق فخذه فانتخلع حق فخذ يعقوب في مصارعة معه ، وقال أطلقني لأنه
قد طلع الفجر فقال لا اطلقك إن لم تباركني ؛ فقال ما اسمك ؟ قال يعقوب ؛ فقال
لا يدعى اسمك في مابعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس
وقدوت» . (١)

لقد حلت هوليوود المشكلة التي لم تستطيع التوراة أن تحلها فمخرجوا الأفلام الدرامية التي
تناولت سيرة أنبياء العهد القديم ؛ حرصوا في مشهد ضيوف إبراهيم الثلاثة على أن يستخدموا
المؤثر الضوئي في إخفاء وجه واحد منهم بصفته الإله أما في مشهد مصارعة الإله ليعقوب فقد
ألبسوا الممثل الذي أدى دور (الإله) «ماسك» أسود من رأسه إلى أخمص قدميه فلم يظهر وجهه
لكن هوليوود في أفلامها مع التوراة أعطت صورة للإله تشبه تماماً صورتي وصورتك وصورة أي
شخص تقابله في الطريق أو تجالسه في المقهى (!!)

وهذا ما جاء في التوراة .. يعقوب يصارع الإله فلا يقدر عليه فقدره يعقوب إذن تكافئ قدرة
ذلك الإله بل وتزيد عليها .. !!

إن النص الذي يجسد الإله بشراً يسلب هذا الإله قدرته على خلقه الذين جبلهم من الأرض

(١) تكوين ٣٢ : ٢٢ - ٢٩ .

تراباً ، فأى عقل مريض صور هذا ؟! إن التوراة تكشف دون أن تدري عن مصدرها الأسطوري التي استشفت منه هذه القصة عندما تقول لنا معقبة فى أعداد تالية :

«فدعا يعقوب اسم المكان فنيثيل قائلاً : لأنى نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسى ،
وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يجمع على فخله ، لذلك لا يأكل بنو
إسرائيل عرق النسا الذى على حق الفخذ إلى هذا اليوم . لأنه ضرب حق فخذ
يعقوب على عرق النسا» .

وهكذا تجلت روح الأسطورة وقبل الكهنة تفسيرها لمسألتي تغيير اسم يعقوب إلى
إسرائيل ومعناه (عبد الله) وكراهة بنى إسرائيل لأكل عرق النسا من الذبائح ؛ وفوق هذا
وذاك فالنص يخدم غرضاً هاماً هو تقريب صورة الإله لعقول الشعب ثم الإعلاء من شأن
آباء إسرائيل الأوائل (إبراهيم ويعقوب ثم موسى فيما بعد) وتصويرهم بهذا الالتصاق
والقرب الأسطوري من الإله حتى جعلهم أصدقاءه وأنداده يميزهم ويخصهم كما ميز وخص
شعب إسرائيل .

وفى هذا السياق لم يكن مستغرباً من التوراة أن توصم الإله بصفات بشرية سلبية من مثل
التردد والندم والنسيان :

«فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب» . (١)

«فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه» . (٢)

وما ندمه إلا على فعل كان قد عزم عليه ثم تردد فعاد عنه ؛ وقصص تردد الإله كثيرة
فى التوراة .

على أن هناك صفة أخرى ألصقها اليهود بالإله هى علامة وعنوان على إله اليهود التوراتى
وتتناسب تماماً مع نفسية اليهود كرد فعل مضاد لإضطهادهم ومذلتهم على طول التاريخ .
لكننا نندهش ونحن نرصد ذلك العنف الدموى وروح الانتقام الشريرة التى تسيطر على تاريخ
إسرائيل فهل كان هذا بمعزل عن النص الذى سجل الحوادث بأمانة أم أن هذا العنف وريث
للمعتقد الأصولى التوراتى الذى ينقل هذه الصفة للإله فيجعله إله بطش جبار ورب للجنود .

(١) خروج ٢ : ٢٤ .

(٢) خروج ٣٢ : ١٤ .

وربما ورد هذا الاسم (رب الجنود) فى كتاب حروب الرب وهو أحد المصادر التى أشارت لها التوراة كمرجع اعتمد عليه الكهنة فى جمعهم للتوراة . فقبلوه عنواناً على الإله فى مرحلة مدهم السياسى وانتصاراتهم الحربية ، فوجد هذا الإله يمد ظله فى الوصايا التى يضعونها فى قم موسى ويذكرها سفر التثنية على أنها من كلامه :

«متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك ، الحيتيين والجرجاشيين والأموريين والكتنانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين . سبعة شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم» . (١)

والقضية هنا ليست قضية إيمان بمعنى أن القتل والتحريم ونزع مواضع الشفقة والرحمة من القلوب لم يكن كل ذلك لأجل تكريس الإيمان بالله أو لأن اليهود يستحقون أن يكونوا أداة الإله لتنفيذ مشيئته فى الأرض ؛ وقد نصت التوراة فى أكثر من موضع أنه شعب عنيد فى الكفر أسخط الرب كثيراً جداً فهل كان الإله يفعل ذلك بسبب إثم تلك الشعوب فأراد أن يستبدلهم بمؤمنين موحدين ؟! أو بسبب بر وإيمان بنى إسرائيل ؟! لا هذا ولا ذاك . إن التوراة تفاجئنا بالسبب حين تقول :

«لكى يفى بالكلام الذى أقسم الرب عليه لأبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب» (٢)

فعدم بر إسرائيل يساوى إثم هذه الشعوب .

لقد تحولت قضية الإيمان إلى قضية سياسية وملخصها : الإله يخلق هذه الشعوب ليفنيها إسرائيل ويسكن أرضها لأن الإله وعد آباء إسرائيل بذلك (!!) وإله إسرائيل فى ذلك إله عنيد لا يعود فى كلامه (فى هذه النقطة بالذات) حتى لو عصاه إسرائيل وأشرك به فالإله لا يعنيه بر البار ولا فساد المفسد ولأنه إله عنصرى فقد أفرز إسرائيل ابنه البكر . (٣)

على أننا نترك أمر العنصرية قليلاً ونستكمل حديث رب الجنود . إن دراسة أسفار التوراة الأولى والأخيرة تعطى لنا مؤشراً على ظهور رب الجنود وزيادة جرعة الشر والانتقام والرغبة فى القتل والإبادة ، فسفر التثنية الذى كتب إبان ضعف تكوين اليهود السياسى بل وتدمير مملكة

(١) تثنية ٧ : ١ - ٣ .

(٢) تثنية ٩ : ٥ .

(٣) لهذا خلقت الشريعة اليهودية أسطورة الابن البكر فى العائلة .

الكهنة الذين دونوا السفر وأغلبهم بالمصادفة من هذه المملكة التى جرى على أهلها الهوان يسقطون رغبتهم الشخصية فى الانتقام على قصص التوراة حتى انهم يعيدون مشاهد سيطرتهم على أرض فلسطين بكثير من العنف المبالغ فيه :

«فاعلم اليوم أن الرب إلهك العاير أمامك نار آكلة . هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلمك الرب» . (١)

وجعل الكهنة ذلك العنف فريضة وناقلة :

«متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم . لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم» . (٢)

وفى سفر التثنية أيضاً تجد شريعة حرب رب الجنود فى شكل وصية من الرب يضعها على فم موسى وتقرر :

«حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسألك بل عملت لك حرباً فحاصرها .. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يديك فاضرب جميع ذكورها بعد السيف وأما النساء والأطفال والبهايم وكل ما فى المدينة . كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً : الحيشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين» .

إن وصية سفر التثنية السابقة لا شك تخالف وصية أخرى نقشها الله بإصبعه على لوح حجر تقول : لا تقتل ، وهى وصية مطلقة حرمت فعل القتل فى حد ذاته أى حرمت سلب الحياة من الروح التى خلقها الله إنساناً أو حيواناً أو طائراً أو زرعاً فنسختها شريعة التثنية حسب هوى الكهنة وبمعرفتهم . فإذا كان الله قد أوصى موسى أن يبلغ الناس ألا تقتل فمن الذى أوحى إليه

(١) تثنية ٩ : ٣ .

(٢) تثنية ٧ : ١ - ٣ .

بعد ذلك بأوامر القتل والاغتصاب والاستعباد والإبادة!؟

وهى أفعال من شأنها فساد الكون ، كأن رب الجنود قد جعل إسرائيل آلة لبذر الشر وتمنوا هم على الإله قساوة القلب وروح الانتقام .

وكما ظهر رب الجنود هذا فى أيام الغزو الأولى لفلسطين استدعاه عزرا الكاتب فى الأيام الأخيرة فأخرجه من أداير الأسطورة لينفخ به فى صدور الأموات على أرض فارس لكى ينهضوا ويعودوا إلى صهيون لذلك جاء على فم بنى قورح المعنى وأرميا مثل هذه العبارات :

«يارب يا إله الجنود اسمع صلاتى واصغ يا إله يعقوب» . (١)

«..... هكلا قال رب الجنود إله إسرائيل» . (٢)

ونعود لحديث العنصرية الذى يتواتر على صفحات التوراة بلا سبب مباشر فى أحيان كثيرة أو مرتبط بمسألة العهد مع الإله :

«أما موسى فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل قائلاً : هكلا تقول لبيت يعقوب وتخبر بنى إسرائيل إن سمعتم لصوتى وحفظتم عهدى تكونون لى خاصة من جميع الشعوب فإن لى كل الأرض وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة» . (٣)

وترتفع تلك النبوة التمييزية الإلهية أحياناً إلى الدرجة التى يصرح فيه الإله :

«وأهلك الرب اليوم أن تكون له شعباً خاصاً وأن يجعلك مستعلياً على جميع القبائل التى عملها فى الثناء والاسم والبهاء وأن تكون شعباً مقدساً للرب إلهك» . (٤)

إن نص التنبيه بالتحديد هو الذى رسخ مفهوم العنصرية فى التوراة وحوله إلى عنصرية سياسية دينية تربط بين هذا التفصيل والوعد بإرث الأرض الذى قال النص التوراتى إن الإله منحه لأباء إسرائيل دونما سبب عقلانى ، إنما لسبب وجدانى صريح هو تمييز الإله وفرزه لإسرائيل من بين

(١) مزمور ٨٥ لإمام المغنين لبنى قورح .

(٢) أرميا : ٤٤ .

(٣) سفر الخروج ١٩ : ١٣ - ٦ .

(٤) تثنية ١٤ : ٢ .

خلقه فإذا أسقط إسرائيل الشرط الذى يخصه فى هذا التعاقد فإن الإله يعاقبه لكنه أبداً يندم على ذلك .

ويبدو أن ذكر الندم سوف يجبرنا لسرد قصة الملك آخاب ملك إسرائيل (مملكة الشمال) والواردة فى سفر الملوك فى إصحاحه الحادى والعشرين ... وفى هذه القصة يقرر الرب للنبي إيليا التشيى أنه سوف ينتقم من آخاب هذا بسبب آثامه وشروره ويبعث رسالة بهذا المعنى لآخاب الظالم يضعها على فم إيليا وهى رسالة قاطعة لا تحمل التأويل أو تحمل أية إشارة للعفو المبني على علم الإله المطلق فى خلقه :

«فكان كلام الرب إلى إيليا التشيى قائلاً : قم انزل للقاء آخاب ملك إسرائيل الذى فى السامرة ثم كلمه قائلاً : هكذا قال الرب فى المكان الذى لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً» . (١)

لكن فجأة يعود الرب فى قراره فيقول لإيليا :

«هل رأيت كيف اتضع آخاب أمامى فمن أجل أنه قد اتضع أمامى لا أجلب الشر فى أيامه بل فى أيام ابنه أجلب الشر فى بيته» . (٢)

إن إله الكهنة هذا إما ناقص علم ولذلك هو متسرع وإما أنه متردد إلى الحد الذى يقرر فيه الشيء ثم ينكث عنه فيبدور ويناور ويعود من حيث بدأ وهو فى ذلك يحاول أن يسد ثغرات التاريخ والأحداث (حاشا لله أن يكون ذلك من صفات رب العالمين) .

وبعد .. فإن الإله العنصرى الذى تتحدث عنه التوراة رب إقليمى خاص بإسرائيل فى الزمان والمكان مبعوث فيها ولها ومن يطلبه فليذهب إليه هناك . وفى قصة نعمان رئيس جيش الآرميين دليل على ما ندعى ، والقصة وردت فى الإصحاح الخامس من سفر الملوك الثانى تحكى حكاية نعمان هذا الذى أصيب بالبرص (٣) فدلته فتاة يهودية صغيرة (أمة فى بيته) أن يذهب للنبي الذى فى السامرة يطلب الشفاء ، وبعد قليل من الحكاية يصل القائد الآرامى لإليشع بناء على طلب الأخير (حتى يعلم هذا القائد أنه يوجد نبي فى إسرائيل ، ويوصى إليشع

(١) الملوك الأول الإصحاح ٢١ .

(٢) المصدر السابق نفس الإصحاح .

(٣) البرص من الأمراض الأسطورية فى اليهودية وسوف يرد توضيح ذلك لاحقاً .

المريض بالذهاب للاغتسال في نهر الأردن سبع مرات ، وعندما يفعل الرجل يشفى لحمه ويعود (كلحم صبي صغير ويظهر) والقصة لم تنته عند هذا الحد فما زال لها مغزى توراتى سوف ندركه حالاً :

إن القائد الأرامى يعود للنبي ليعترف له :

«قد عرفت أنه ليس إله فى كل الأرض إلا فى إسرائيل» . (١)

وما سبق لابد أن ينقلنا إلى مناقشة ذلك المعتقد التوراتى الذى يقرر أن الإله يسكن مكاناً معيناً فى السماء ، ففي سفر الملوك الأول الإصحاح الثامن تتردد عبارة : «السماء مكان سكناك» أكثر من مرة وفيها يطلب صاحب الدعاء - الذى تقول التوراة إنه النبی سليمان - من الله أن يسمعه من مكانه فى السماء (مكان سكناه) على أن الاعتقاد السابق لا يتعارض فى الحقيقة مع اعتقاد التوراة؛ أيضاً فى أن الإله يحل فى بيته (بيت الرب وخيمة الاجتماع) فيسكن إلى حين وهو تطوير للاعتقاد الذى ساد فى أسفار التوراة الأولى ويجسد الله فيجعله ينزل إلى الأرض أحياناً لأجل مهمة محددة ينجزها ثم يعود إلى السماء (فى قصة مصارعة يعقوب طلب أن يعود قبل أن يشرق الصباح) ، وعلى لسان سليمان تقول التوراة :

«قال الرب إنه يسكن فى الضباب وأنا بنيت لك بيت سكنتى مكاناً لسكناك إلى الأبد» . (٢)

وتخبرنا التوراة أن داود هو القائل :

«قد أراح الرب إله إسرائيل شعبه فسكن فى اورشليم إلى الأبد» . (٣)

وإلى داود أيضاً نسبت التوراة :

«يا أخوتى وشعبى كان فى قلبى أن أبني بيت قرار لتابوت عهد الرب ولموطئ قلمى إلهنا» . (٤)

وقبل بناء هيكل اورشليم الذى أنجز فى عهد سليمان كان هناك البيت القديم الذى بناه موسى بمواصفات قالت التوراة إنها صادرة عن الإله فهى إذن مواصفات مقدسة . ولم تكتف النصوص

(١) وبقيّة القصة فيها كثير من الأسطورة وروح التأليف البشرى وتنتهى بأن يلصق النبی إلیشع مرض نعمان على فتى من فتياه إلى الأبد وتجدها فى الملوك الثانى الإصحاح الخامس .

(٢) أخبار الأيام الثانى : ٦ .

(٣) أخبار الأيام الأول ٢٣ : ٢٥ .

(٤) الإصحاح السابق العدد ٢٨ .

بهيكل البيت لكن تعدته فوصفت وحددت مقاييس ومعادن كل الأدوات المقدسة المكملة وكذا تابوت العهد وغطاءه والكرويين الذين عليه حيث يجتمع الله بموسى فيكلمه من على الغطاء من بين الكرويين إلى آخر هذا الأمر ..

وما بين تاريخ كتابة الأسفار الأولى سفرى التكوين والخروج ، والأسفار الأخيرة التى دونها عزرا مثل أخبار الأيام . كان قد حدث تطور فى الديانة اليهودية وبالتالى تطورت النظرة إلى الإله ، ولذلك فقد حاول عزرا أن يثر بعض العبارات التى تنفى عن الإله الاحتواء فى مكان معين هو هيكل أورشليم ؛ فعلى لسان سليمان تقول التوراة :

«ومن يستطيع أن يبنى له بيتاً لأن السموات وسماها السموات لا تسعه ومن أنا حتى أبنى له بيتاً إلا للإيقاد أمامه» .

إن تردد التوراة فى هذه النقطة لا يخفى على أحد وتظهره هى عندما تضع سؤالاً فى فم سليمان يقول :

«هل يسكن الله حقاً مع الإنسان على الأرض» . (١)

والحقيقة أن للكهنة دوراً فى تلك البلبلة لصرف وجه الناس إلى التقدّمات وإغراق التقربات للإيقاد للإله الذى يتعشق رائحة الشواء (تقدّمات السرور) حتى إنهم جعلوا الإله يتدخل فيحدد مقادير وأنواع وطرق القرابين المقدمة له من الذبائح والأطعمة (!!)

وتركنا نصوص التوراة وفى حلقنا سؤال نفص به : هل كان الإله يحل بذاته فى بيته أم بروحه ، أم أن بهاء الله هو الذى كان يحل فى البيت كما يقول الإصحاح الأخير من سفر الخروج . إنها مشكلة أخرى تشبه مشكلة رؤية الله التى صادفتنا مع إبراهيم ويعقوب وموسى والتى تركنا التوراة فيها لاجتهاداتنا .

لكننا نستطيع أن نفسر الأمر بجلاء إذا اكتشفنا ما كان يجرى فى بيت الرب على يد الكهنة واللاويين ، وما يحدث كان شيئاً مثيراً للسخرية ويكفى أنه حوّل بيت الرب إلى بيت لشهوات الكهنة واللاويين بل والشعب ، حدث هذا قبل بعثة النبی عيسى بن مريم بسنين كثيرة حتى جاء يجاهدكم فى ذلك ، ولا تخجل التوراة أن تخبرنا بشئ من ذلك وهى تفند وظائف الكهنة واللاويين :

«وبعضهم على آنية الخلعة لأنهم كانوا يدخلونها بعمد ويخرجونها بعمد» .

(١) أخبار الأيام الثانى ٦ : ١٨ .

وبعضهم أوثقوا على الآنية وعلى كل أمتعة القدس وعلى الدقيق والخمر واللبن
والأطياب والبعض من بنى الكهنة كانوا يركبون دهنون الأطياب ومثيا واحد من
اللاويين وهو بكر شلوم القائم بالوظيفة على عمل المطبوعات والبعض من بنى
القهاثين من إخوتهم على خبز الوجوه ليهيؤوه فى كل سبت. (١)

.. وبعد فهل تستغرب بعد أن أنزل الكهنة واللاويين الإله من عليائه إلى الأرض ؛ أن نجد فى
التوراة من البشر العاديين من يحدث الإله بسوء أدب ؛ من مثل إيشان الأزرأحي المنسوب إليه
المزمور التاسع والثمانين ويقول فيه للإله :

«لكنك رفضت ورذلت . غضبت على مسيحك . نقضت عهد عبدك . نجست
تاجه فى التراب . هدمت كل جدراته . جعلت حصونه خراباً . فرحت جميع
أعدائه . أيضاً رددت حد سيفه ولم تنصره فى القتال . أبطلت بهاءه وألقيت كرسيه
إلى الأرض . قصرت أيام شبابه . غطيته بالخزى . سلاه . حتى متى يا رب تختبئ
كل الاختباء. (٢)

- لا تقتل .. لا تزن .. لا تسرق -

ومن القتل الجماعى (الإبادة والتحريم) الذى أقرته التوراة لبني إسرائيل فجعلته دستوراً
لحروبهم مع الآخرين ، إلى حد القتل الذى يطبق على الإنسان جزاء لجرم ارتكبه .

والمفروض أن هناك - دائماً - تشريعاً يحمل حكمة أخلاقية جعلها الخالق سبباً قوياً لسلب
الروح من المخلوق فيكون الأمر بإذنه حماية للحياة من الفساد والشر . ولا بد لهذا السبب أن
يتناسب مع تلك العقوبة الغليظة .

لكن ماذا لو انقلب هذا السبب الأخلاقى إلى سبب لا أخلاقى فى جوهره ؟! أو إلى سبب
ملفق ؟!

هل يكون الله هو الأمر فى هذه الحالة ؟!

والأصل فى العقوبة الردع بمعنى التخويف من إتيان الجرم لكن إن جاء تشريع وحمل فى ذاته

(١) أخبار الأيام الأول ٩ : ٢٨ .

(٢) مزمور ٨٩ : ٣٨ - ٤٦ .

سبباً لنسخه بمعنى أنه أوجد ثغرة يفلت منها المجرم فهل يستوفى هذا التشريع الغرض الذى شرّع من أجله ؟!

وإن قال البعض إن فى ذلك مجالاً للرحمة فنحن نقول إن الرحمة تكمن فى تطبيق الحد وليس فى الإفلات منه لأن تطبيقه على المجرم سيجعل ألف واحد غيره يفكرون كثيراً قبل الإقدام على جريمتهم ولو أبقن هؤلاء أن فى التشريع ما يتيح لهم الإفلات - بجريمتهم - من العقاب فلن يترددوا كثيراً .

أما تشريع التوراة فيما يتعلق بعقوبة القتل فنجدها فى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الخروج تنص على الآتى :

«من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً . ولكن الذى لم يعتمد بل أوقع الله فى يده فأنا أجعل لك مكاناً يهرب إليه ^(١) ، وإذا بغى إنساناً على صاحبه ليقتله بغدر فمن عند ملبجى تأخذه للموت ، ومن ضرب «أباه أو أمه» يقتل قتلاً ، ومن سرق إنساناً وياعه أو وجد فى يده يقتل قتلاً ، ومن شتم «أباه أو أمه» يقتل قتلاً ، وإذا تخاصم رجلان فضرب أحدهما الآخر بحجر أو بلكمة ولم يقتل بل سقط فى الفراش فإن قام وتمشى خارجاً على عكازه يكون الضارب بريئاً ، إلا أن يعرض عطلة وينفق على شفائه .»

والشريعة السابقة تكاد تكون متسقة مع المبدأ التشريعى (اليهودى أيضاً) العين بالعين والسن بالسن ، لكن النص لا يمتد إلى نهايته متمسكاً بتلك الشريعة فهو ينحرف فى الأعداد التالية حين ينص على :

«وإذا ضرب إنسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده ينتقم منه لكن إن بقى يوماً أو يومين لا ينتقم منه لأنه ماله» .

.. كيف ؟!

لقد تحولت الشريعة تحولاً تاماً عندما تعاملت مع الغريب (غير اليهودى) ولو قال قائل إن العبد يحتمل أن يكون غريباً أو يهودياً فمردود عليه بأنه على الرغم من أن الشريعة اليهودية لم تنه عن استعباد اليهودى لليهودى فإنها جعلت نظاماً لتحريره وهو مرور ست سنوات على بقاءه فى

(١) هذا المكان يسمى مدن الملجأ وإليها يلجأ القاتل على سبيل الخطأ والنصوص التوراتية حددت تلك المدن تبعاً لتقسيم الأرض بين الأسباط الاثنى عشر .

عبوديته بل وحث التوراة على اعتبار العبد العبراني أخاً لسيدته الذي يملكه وعليه أن يعامله على هذا وأوصى الإله في التوراة بإطلاق العبيد العبرانيين أحراراً (١).

وعلى هذا فقد تعاملت الشريعة مع هذا العبد (الغريب) على أنه شيء مادي لسيدته حق التصرف فيه كيف يشاء كأي متاع من أمتعته حتى مسألة الانتقام من السيد في حالة ضربه لعبدته ضرباً يفرض به إلى الموت جعلتها التوراة مفتوحة متروكة لتقدير الأسياد فالعبيد لا يقررون شيئاً لأنفسهم وبالتالي فهي عرضة للصدفة والتجاهل ؛ فإذا بقي هذا العبد على قيد الحياة ولو لساعات قليلة بعد الضرب فقد أهدر دمه تماماً لأن النص نسخ العقوبة ودمرت الشريعة أساساً أخلاقياً للتعامل بين البشر .

ونجد الشريعة تصر على هذا المبدأ الهمجي عندما تقرر باقى العقوبات التي تتعلق بأذى إنسان فتقرر أولاً (بالنسبة للحر) .

«وإن حصلت أذية تعطى نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن ويداً بيد ورجلاً برجل وكياً بكى وجرحاً بجرح ورضاً برض» .

ثم يأتي العدد التالي فيقرر على العبد والأمة ما يلي :

«وإذا ضرب إنسان عين عبده أو عين أمة فأتلفها يطلقه حراً عوضاً عن عينيه وإن أسقط سن عبده أو سن أمة يطلقه حراً عوضاً عن سنه» .

وعلى هذا لا نستغرب سيرة اليهود (المقدسة) المليئة بحكايات التسخير البشعة لأسراهم وعبيدهم من غير العبرانيين هذا إذا أفلتوا من الموت والتمثيل بجثثهم والسيرة المقدسة تحكى لنا الكثير من تلك المشاهد الدموية :

«فقال يشوع افتحوا فم المغارة وأخرجوا إلى هؤلاء الخمسة الملوك ... وكان لما أخرجوا أولئك الملوك .. أن يشوع دعا كل رجال إسرائيل وقال لقواد رجال الحرب الذين ساروا معه تقدموا وضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك . فتقدموا ووضعوا أرجلهم على أعناقهم .. وضربهم يشوع بعد ذلك ونقلهم وعلقهم على خمس خشب ويقولون معلقين على الخشب حتى المساء» . «وضربوا الكنعانيين والفرزيين فهرب أدوني بازق فتبعوه وأمسكوه وقطعوا أباهم يديه ورجليه» .

(١) أنظر أرميا ٣٤ : ٨ - ٩ .

«فقال جدعون (أحد قضاة إسرائيل) لذلك عندما يدفع الرب زبيح وصلمتاع يدي أدوس لحمهم مع أشواك البرية بالتوارج» .

«وأما أمصيا (أحد ملوك يهوذا) فتشدد واقتاد شعبه وذهب إلى وادي الملح وضرب من بني ساعير عشرة آلاف وعشرة آلاف أحياء سباهم بنو يهوذا وأتوا بهم إلى رأس سالع وطرحوهم على رأس سالع فتكسروا أجمعين» .

ولعل ما سبق فيه الكفاية وإن كان قليل من كثير امتلأت به صفحات التوراة ..
ومن القتل تنتقل إلى حديث الزنا .

..لاتزن

ولقد وردت الشريعة الأولى في سفر الخروج تنهى عن فعل الزنا لكنها لم تناقش تفاصيل تلك الجريمة ولا عقابها مثلما فعلت مع باقى الجرائم التى ورد تحريمها ضمن الوصايا العشر ، وتدارك الكهنة ذلك الأمر فأوردوه فيما بعد فى نص التشية وبالتحديد فى إصحاحه الثانى والعشرين وبكثير من التفاصيل أهمها رجم الزانى والزانية بالحجارة إذا كانا محصنين (متزوجين) والزواج من الفتاة المزنى بها مع تعويض أهلها بالمال إذا كانت غير مخطوبة ولا يحق للرجل فى هذه الحالة طلاق تلك المرأة مدى حياته وينتهى الإصحاح بتحريم زوجة الأب وكشف ذيله .

وإذا كانت تلك هى العقوبات التى وردت فى التوراة فإن هناك عقوبات أخرى أخذ بها بنو إسرائيل قبل شريعة موسى ومنها حرق الزانى والزانية وهى عقوبات مشددة كما نرى .. لكن هل أخذ إسرائيل بهذه العقوبات ؟ إن التوراة تخبرنا فى أكثر من موضع عن تجاوز بنى إسرائيل عن هذه الشريعة بل وآبائهم الأولين ، وأخبرتنا التوراة عن قصص زناهم دونما هدف أخلاقى واضح إلا ادعاء صدق حديثها بل مجدت التوراة إحدى الزانيات فكادت تضعها فى مصاف القديسات لمجرد أنها ساعدت جواسيس إسرائيل فخبأتهم ونالت المكافأة لكنها ظلت موصوفة بصفقتها «راحاب الزانية» التى لم تفارقها إلى الأبد فكان كل مجدها أنها ساعدت إسرائيل وبسبب الخوف خانت أهلها .

ثم ماذا عن القديستين استير ويهوديت ؟!

لقد أفردت لهما التوراة سفرين على اسميهما تحكيان كيف استخدمتا الجمال والغواية بالجسد فى إنقاذ شعب اليهود (لا يخجل سفر يهوديت من التصريح بذلك) والصفحات التالية سوف

نورد تفاصيل ذلك .

لكن ما يستوقفنا كثيراً هو اتهام التوراة لأنبياء إسرائيل وآبائها الأولين باقتراف جريمة الزنا والوقوع فيها مع المحارم فى كثير من الأحيان ، فهذا نبي الله لوط ، ادعت عليه التوراة أن ابنتيه زنتا به ، وهذا يهوذا بن يعقوب أحد الأسباط الاثنى عشر قالت التوراة إنه زنى بكتته (زوجة ابنه) ، والنبي داود قالت عنه التوراة أيضاً إنه زنى بزوجة أحد جنوده (يوريا الحثي) ، واتهمت ابنته بالزنى مع أخته غير الشقيقة ؛ والعجيب فى القصة الأخيرة أن نصوص التوراة وصفت من حرض ابن داود - فسهل له فعل الزنا - بالحكمة :

«وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن شمعى أخى داود وكان يوناداب رجلاً حكيماً جداً فقال له لماذا يا ابن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح أما تخبرنى ، فقال له أمنون إني أحب أختى ثامار أخت أبشالوم أخى ، فقال يوناداب اضطجع على سريرك وتمارض وإذا جاء أبوك ليراك فقل له دع ثامار أختى فتأتى وتطعمنى خبزاً وتعمل أمامى الطعام لأرى فأكل من يدها» . (١)

وهكذا رسم الصديق (الحكيم جداً) خطة لصديقه لينفرد باخته ويفترسها ، ومهما كان الاحتجاج بأن النص ليس فى لغته الأصلية وربما يكون للترجمة دخل فى وصف هذا الصديق (راسم خطة الاغتصاب) بالحكمة ففى كل الحالات لا يمكن أن يكون الوصف غير حسن وإلا ما استخدمت الترجمة لفظ الحكمة مرادفاً له .

ومن القصة نفهم أنه لم يكن فى هذا الوقت يحرم اليهود زواج الأخ من الأخت غير الشقيقة حيث جاء على لسان ثامار لأخيها (غير الشقيق) : «والآن كلم الملك فإنه لا يمنعنى منك» على الرغم من أن الشريعة التى نزلت على موسى تحرم ذلك وهى سابقة على زمن داود .

«صورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة فى البيت أو المولودة خارجاً لا تكشف عورتها» ... (١١) (٢)

ونعود لسيرة يهوذا فنقرأ قصة وقوعه فى خطيئة الزنا كما وردت فى سفر التكوين ، تقول :

«فنظرها يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطت وجهها فمال إليها على الطريق وقال هاأنى أدخل عليك ، لأنه لم يعلم أنها كته ، فقالت ماذا تعطينى لكى تدخل

(١) صموئيل الثانى ١٣ : ٣ .

(٢) لاويين ١٨ : ٧ .

على ؟ فقال إني أرسل جدى معزى من الغنم فقالت هل تعطنى رهناً حتى ترسله ،
فقال ما الرهن الذى أعطيك ، فقالت خاتمك وعصابتك وعصاك التى فى يدك ،
فأعطاهما ودخل عليها فحبلت منه ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست
ثياب ترملةا .

وتمضى القصة فى أحداثها فتروى لنا أن يهوذا أرسل يبحث عن المرأة التى زنا بها ليعطيها
أجرها ويأخذ رهنه فلم يجدها ، وبعد حين أخبروه أن كتنه (زوجة ابنه) زنت فحبلت من زناها
فكان رد يهوذا على ذلك أن أخرجوها فتحرق بالنار ، وما كادوا يفعلون حتى أرسلت المرأة إلى
حميها الرهن الذى تحتفظ به ومعه رسالة : «من الرجل الذى هذه له أنا حبلى» ، ولما تحقق يهوذا
من أن الرهن له أدرك أنه الفاعل فقال : «هى أبر منى» (!!).

ومن الزنا ولدت كنة يهوذا فارص وزارح ومن الاثنين جاء النسل الذى ينسب إليه نبي
الله داود (!!)

وهناك ملاحظة شكلية فى قصتى كتنه يهوذا وابنة داود وهى أن كليهما تدعى (ثامار) فهل
هذه مجرد مصادفة أم أنه من فعل الأسطورة (ما علينا فى هذه) لكننا سوف نضطر أيضاً فى قصة
زنا يهوذا أن يعود إلى التشريع التوراتى الذى يقول :

«لا يدخل ابن زنا فى جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد فى جماعة الرب» (١)

فهل تم تطبيق الشريعة على ذرية يهوذا ؟! لم يحدث بالطبع وتعاملت التوراة مع تلك
الذرية على أساس أنها من جماعة الرب ومنها جاء داود (من الجيل الثامن) لذرية فارص ابن
الزنا (!!).

ومن بين الأسباط الاثنى عشر لم يكن يهوذا الوحيد الزانى بين أخوته لكن كان هناك آخر زنا
أيضاً بأحدى محارمه (حليلة أبيه) وعن ذلك يخبرنا سفر التكوين :

«وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً فى تلك الأرض أن رأوين ذهب واضطجع مع
بلهة سرية أبيه. وسمع إسرائيل» .

وللتذكير فإسرائيل هو يعقوب النبي ولنا أن نسأل ماذا فعل نبي الله حيال هذه الفعلة الشنعاء
التي أتاها أحد أبنائه ؟! لا شيء .. لقد سكت يعقوب وسكت النص فلم يعقب وهنا لنا أن نسأل
بلا ملل ولا كلل :

ما هو المغزى الأخلاقى الذى تشير له هذه القصص التوراتية ؟!

أهى دليل عملى للأجيال اليهودية يقدمها لهم آباؤهم الأولون .

لقد ألفت التوراة كرة الخبث فى وجوهنا ثم سكتت .

إنها التوراة نفسها التى لم تتورع عن أن تصف أبى الأنبياء إبراهيم سلام الله عليه بأنه ديوث (حاشا لله أن يكون كذلك) يتاجر بزوجه بل قالت إنه فعلها أكثر من مرة ليس هو فقط بل ابنه النبى إسحق سلام الله عليهما ... يقول لنا سفر التكوين :

إن إبراهيم الذى كان اسمه فى ذلك الوقت إبرام قد انحدر إلى مصر ليتغرب لأن الجوع فى الأرض كان شديداً ، وتمضى القصة التوراتية تخبرنا أنه لما قرب أن يدخل مصر (إبرام) قال لساراي (سارة) امرأته : إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك ، قولى إنك أختى ليكون لى خيراً بسبك ونحياً نفسى من أجلك . (١)

وأمام الجملة الأخيرة نتوقف قليلاً ونعيد القراءة ولو عدناها ألف مرة فليس للكلام إلا معنى واحداً : الرجل يبيع زوجته درءاً للشرب وجلباً للمنفعة فى غير ثقة منه فى أن هناك إله هو الذى ينفع ويضر ، هو القاضى ولا راد لقضائه .

أو ليس هذا أكثر اتساقاً مع نفسية نبى ؟! أو هل يصح أن يضع الله فى قلب هذا النبى وفى فمه - بعد ذلك - كلام وحيه ويأتمنه على تبليغ رسالته ؟!

إن ما يدعونا لليقين فى أن الحكاية كلها ملفقة أو هى وليدة الأسطورة أنها تكررت بنفس تفاصيلها - تقريباً - مرتين فوق الأولى ، فتدعى التوراة أن نبى الله إبراهيم قد فعلها مرة أخرى مع ملك آخر هو إيمالك ملك جرار :

«وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى فأرسل إيمالك ملك جرار وأخذ سارة» . (٢)

والمرّة الثالثة التى تكرر فيها مثل هذا السيناريو التأليفى الرديء كان فى قصة النبى إسحق ابن النبى إبراهيم سلام الله عليهما :

«وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هى أختى لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل

(١) القصة مذكورة فى تكوين : ١٢ .

(٢) تكوين ٢٠ : ٢ .

المكان يقتلوننى من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر ، وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن إيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر وإذا إسحق يلاعب رفقة امرأته . فدعا إيمالك إسحق وقال إنما هي امرأتك فكيف قلت هي أختي ؟ فقال له إسحق لأنى قلت لعلى أموت بسيها ؛ فقال إيمالك ما هذا الذى صنعت بنا . لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً. (١)

وفى هذه القصة الأخيرة نلاحظ أن التفاصيل تغيرت قليلاً فاستبدل الراوى الملك الطامع فى زوجة إبراهيم بالشعب الطامع فى زوجة إسحق ! وعلى هذا فلم تدخل رفقة قصر الملك ولم يشتهيها الآخر لنفسه إنما كان خوفه من أن يقترب واحد من الشعب جريمة الزنا مع حليلة إسحق...

والملاحظة التى لا تخفى على نظر أحد أن إيمالك بطل قصة إبراهيم قد عاش كل هذا العمر لتشاء الصدف أن يتكرر الأمر برمته مع إسحق ابن إبراهيم بعد سنوات عديدة وهى مصادفة درامية فجة !!

ولعل السيرة الشعبية التى نقلت التوراة من مدوناتها لم تقبل تلك القصص على أنها من قبيل الطعن فى سيرة النبيين (إبراهيم وإسحق) بل على العكس قد تكون هذه القصص قد قُبلت على أنها تعلى من شأن هذين النبيين وتضيف على سيرتهما مزيداً من المعجزات ، ففى الحكاية الأولى ضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي (سارة) امرأة إبراهيم على الرغم من أن فرعون لم يكن يعلم أن المرأة زوجة أحد ! ، وفى المرة الثانية جاء الله إلى إيمالك فى حلم الليل يخبره أنه ميت من أجل المرأة التى أخذها فهى متزوجة ببعل .. ثم تمضى الحكاية التى لا يمكن أن يتخيل تفاصيلها عقل سليم تقول :

«ولكن لم يكن إيمالك قد اقترب إليها ، فقال : يا سيد آله بارة تقتل ، ألم يقل هو إنها أختى وهى أيضاً نفسها قالت هو أختى ، بسلامة قلبى وتقاوة يدي فعلت . فقال الله له فى الحلم أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطئ إلى ذلك لم أدعك تمسها فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبي فيصلى من أجلك فتحيا وإن كنت لست تردّها فاعلم أنك موتاً تموت أنت وكل من لك» . (٢)

(١) تكوين ٢٦ : ٧ : ١٠ .

(٢) تكوين ٢٠ : ٤ - ٧ .

ويذعن إيمالك سريعاً للأمر فيرد سارة لزوجها النبي إبراهيم ويعاتبه في خوف شديد بأنه كاد يجلب عليه وعلى مملكته خطيئة عظيمة حتى أن إيمالك يصف ما فعله إبراهيم بأنه «أعمالاً لا تعمل عملت بي» ثم يكافئ إبراهيم بمنحه غنماً وبقراً وعبداً وإماء وألفاً من الفضة ويفتح له أبواب ملكه يسكن فيها كيف شاء .

والقارئ الفاحص لا تفوته سقطتان في هذه القصة ، الأولى هي : اتصال الله المباشر في الحلم بهذا الملك الوثني (لم تقل لنا التوراة أنه من المؤمنين برب إبراهيم) .

وعلى الأولى تترتب نتيجة أخرى فهذا الملك الوثني قد أذعن لإله إبراهيم وأطاعه وهو موقن تمام اليقين أن كلام هذا الإله محقق لا محالة وبلغت خشيته من هذا الإله وخوفه من أن يقترب ذنباً يغضبه بأنه وصف فعل نبي الله بأنه (أعمالاً لا تعمل) فلا بد إذن لهذا الملك أن يكون مؤمناً بهذا الإله بل من الموحدين !

على أن الخيال الشعبي لم ينس أن يضيف لهذه القصة بعض التفاصيل (اللاذعة) ليثبت بها المعجزة لإبراهيم نبي الله وعن هذا تقول التوراة : «فصلى إبراهيم إلى الله فشفي الله إيمالك وامراته وجواريه فولدن . لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت إيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم» .^(١)

والإضافة الأخيرة للقصة معناها أن هناك زمناً طويلاً قد مضى منذ اكتشاف حقيقة سارة (زوجة إبراهيم) إلى أن تم اكتشاف عقم آل بيت إيمالك ، وهو ما لم تشر إليه التوراة إطلاقاً إلا في هذه الفقرة ، ثم ان إيمالك لم يخطئ إلى سارة لأن الله عصمه من الخطأ إذن فلا مشكلة في الحكاية كلها وأخيراً فقد بدا الأمر كأنه عملية تبادل للمنفعة .. النبي إبراهيم يأخذ العطية المادية من الملك مقابل أن يمنحه البركة ويصلي من أجله !

أما في قصة إسحق فقد تغيرت بعض تفاصيل السيناريو وكان لابد أن تتغير فالملك (إيمالك) يكتشف بالصدفة عندما يتجسس على النبي إسحق أن رفقة زوجته فيتبرع هو هذه المرة ويطلق تحذيره بأن من يمس هذه المرأة موتاً يموت !!

إن تشابه التفاصيل إلى حد التطابق تقريباً يثير الشبهة في هذه القصص التوراتية ثم إن إلصاق التهم بالأنبياء ليس دليل صدق التوراة وصدق مصدرها (الذي تدعى أنه الوحي) لأن أى كتاب سماوى لابد أن يهدف من قصصه إلى مغزى أخلاقى على أن التوراة لم تقدم لنا

(١) تكوين ٢٠ : ١٧ - ١٨ .

بهذه القصص مثلاً بشرياً نحتز به بل قدمت أنبياء الله عارين من العصمة وعلى النقيض قدمت الوثنيين (فرعون وإيمالك) .

ومن بعد تستبعد التوراة من نسل إبراهيم ، إسماعيل وتصطفى إسحق ومن نسل الأخير تصطفى يعقوب وتفضله على أخيه عيسو بالخدبة والختل وليس بالاستحقاق أو بمعايير تفضيل إلهية .

وفى قصة راحاب لا تخجل التوراة أن تصف المرأة بأقذع تهمة وهى الزنا وتقرن هذه بذكرها - دائماً - فى التوراة ، ومع هذه الزانية يعقد جواسيس إسرائيل اتفاقية بمقتضاها تخون المرأة قومها على أن يمنحها بنو إسرائيل حياتها فى حال نصرتهم ، ولما يتحقق النصر يحرم المنتصر أهل المدينة وكل مظهر للحياة فيها بحد السيف لكن يبقون على راحاب وأهل بيتها كما وعدوها وتظل التوراة تصفها بالزنا كأنها ظلت تمارس حرفتها فى إسرائيل ؛ وكان جديراً بها وقد سكنت فى وسط شعب الرب وعاينت معجزاته أن تتوب وتؤمن :

«واستحى يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل مالها وسكنت فى وسط إسرائيل» .

ونسأل فى هذه ماذا يكون حكم التوراة فى راحاب لو تبدلت المواقع وكانت هى من إسرائيل فخانتها لصالح أعدائها ؟!

كل المطلوب من المؤمنين بالتوراة فى صورتها الحالية أن يعيدوا تفكيك بعض المواقف ويعيدوا تركيبها فإذا وجدوها حقيقة ثابتة فهى لا شك حقيقة ربانية ؛ فعندما يوصى الله : لا تزنى .. فقد حرم فعل الزنا على عباده ولا يمكن أن تتحول زانية إلى قديسة إلا إذا تابت وآمنت وعملت من الصالحات ما تستحق عليه ذلك ، وفى حالة راحاب فقد وصمتها التوراة بالزنا حتى بعد أن دخلت إسرائيل وسكنت وسطها !

أيضاً لا يستطيع العقل أن يقبل بسهولة حكاية زنا نبي الله داود فهى بلا شك مدسوسة على سيرة هذا النبي العظيم ، والقصة مكتوبة بعد عصر صاحبها بزمان طويل وكاتبها لا شك يحمل حقداً على بيت داود وعلى مملكته أو قل على سبطه الذى يتسمى له (سبط يهوذا) وكاتب القصة يتسمى غالباً إلى مملكة الشمال (إسرائيل) فى إبان الانفصال ، ومراجعة سريعة لظروف ووقائع العداوة والبغضاء بين المملكتين يجعلنا لا نستبعد هذا رأى . أما قراءة متأنية للنص فلا بد أن تحول هذا الاعتقاد إلى حقيقة ، وهنا نتوقف عند فقرة فى التوراة يقول فيه الراوى إن الرب أرسل ناثان يؤنب داود على فعل الزنا بزوجة أحد جنوده ودفعه بهذا الجندى إلى الصفوف الأمامية للقتال

حتى يتخلص منه بالموت ، ويمضى ناثان ينفذ إرادة الرب فيستدرج داود بقصة خيالية عن رجلين في المدينة أحدهما غنى (يقصد به داود) والآخر فقير (يقصد به الجندي زوج المرأة) الأول يملك كل شيء بينما الآخر لا يملك إلا نعجة يتيمة يطمع فيها هذا الغنى ويغتصبها منه ، وتشير الحكاية نفس داود فيحكم في ثورته بالموت على الغنى الطماع ، ومن فمه يأخذ ناثان الحكم ويقول له :

«أنت هو الرجل هكذا قال الرب إله إسرائيل أنا مسحك ملكاً على إسرائيل وأنقلتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيذك ونساء سيذك في حضنك وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا» . (١)

وعند الجملة الأخيرة نتوقف (بيت إسرائيل ويهوذا) ولم يكن على عهد داود قد انقسمت مملكة إسرائيل إلى (إسرائيل ويهوذا) لم يحدث هذا إلا في عهد حفيد داود ولو كان النبي ناثان يقصد بالرمزين أسباط إسرائيل جميعهم فكان يستطيع أن يصرح بذلك ، لكن أليس مثيراً للشبهة أن يذكر النبي ناثان بالتحديد اسمي المملكتين المنفصلتين (إسرائيل ويهوذا) قبل انفصالهما الفعلي بحوالي ثلاثة أرباع قرن من الزمان !!

وفي عبارة (أعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا) ألا نشتم رائحة حقد نابع من صراع على السلطة يعتبر الحكم عطية وليس تولية أو مسئولية ؟!

وبعد .. فالحكم الذي حكمه داود على نفسه وهو الموت لم يطبق :

«فقال ناثان لداود الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك لا تموت غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالأبن المولود لك يموت وضرب الولد الذي ولدته امرأة أوريا لداود فقتل» . (٢)

ولإننا دائماً نبحث عن العبرة الأخلاقية فلنا أن نسأل لماذا لم يطبق حد الزنا على داود حتى يثبت الله شريعته في الأرض ؟! أو لماذا لم يطلب داود (الحكيم) تطبيق الحد عليه ؟! وما مغزى القصة التي رواها ناثان النبي ؟! أكانت لتوضيح الخطأ لداود - فقط - ؟!

إن التوراة لا تشتي توقعنا في بلبلات عديدة فداود هذا الذي تصمه بتهمة الزنا نستطيع أن نخرج من التوراة نفسها ألف نصاً يمجده وينفى عنه مثل هذه التهمة .

(١) صموئيل الثاني ١٢ : ٧ - ٨ .

(٢) صموئيل الثاني ١٢ .

داود الحكيم تثبت التوراة على لسانه في أحد المزامير :

«يكافئني الرب حسب برى ، حسب طهارة يدي يرد علىّ لأنى حفظت طرق الرب ولم أعصى إلهى ، لأن جميع أحكامه أمامى وفرائضه لا أحيد عنها وأكون كاملاً لديه والمحفظ من ائمى فيرد الرب علىّ كبرى وكطهارتنى أمام عينيه» .

ونستطيع أن نرجع للمزامير وننقيها لنخرج منها بذر الحكمة الخالصة التى نطق بها داود .

ونتساءل أيهما نصدق قصة التوراة عن زنا نبي من أنبياء الله ؟! أم أقوال الحكمة التى وردت أيضاً فى التوراة عن الرجل كئيب صافٍ فياضٍ للاستقامة والطهر ؟! إن قول الزور غالباً ما يحمل آفة فساد ودليل كذبه .

ومن داود إلى سليمان النبي ابنه الذى تعرضت سيرته هو الآخر للتشويش والافتراء والتناقض حتى فى السفر الواحد ، فيخبرنا مثلاً سفر الملوك الأول فى إصحاحه العاشر :

«فتعاطم الملك سليمان على كل ملوك الأرض فى الغنى والحكمة . وكانت كل الأرض ملتمة وجه سليمان لتسمع حكمته التى جعلها الله فى قلبه» .

وفى الإصحاح التالى مباشرة تفاجئنا التوراة عن هذا الحكيم فتقول :

«وأحب الملك سليمان نساء غريبة مع بنت فرعون موآيات وعمونيات وآدوميات وصيلونيات وحشيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السرارى فأما نساءه قلبه وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه» .

ولنا أن نعود إلى سيرة سليمان فى سفر أخبار الأيام الأول ؛ الإصحاح الثانى والعشرين حيث يقرر الرب عن سليمان :

«هو يبنى بيتاً لاسمى وهو يكون لى ابناً وأنا له أباً وأثبت كرسي ملكه على إسرائيل إلى الأبد» .

فكيف يعود الله فى قراره فيخالف الابن مشيئة الأب ؟!

إن سفر الملوك ينسب للرب كلاماً عن سليمان يقول فيه :

«فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك ولم تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيتك بها فإنى أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك» ١١

أليست النصوص متناقضة ؟! إن الإله الذى أدعى عليه كتابة التوراة ما لم يقله يبدو متناقضاً من سفر إلى سفر ومن إصحاح إلى إصحاح ، فالنص يضيف بعد العدد السابق مباشرة :

«إلا إنى لا أفعل ذلك فى أيامك من أجل داود أيبك بل من يد ابنك أمزقها على أنى لا أمزق منك المملكة كلها بل أعطى سبطاً واحداً لابنك لأجل داود عبدي ولأجل اورشليم التى اخترتها».

إن النص نفسه الذى يسلب سليمان شيئاً يعيد لداود أشياء سُلِبَت منه ، داود المفترى عليه كسليمان الحكيم ، وكما فتشنا فى مزامير داود نفتش فى أمثال سليمان عن در الحكمة وفيوضات الإيمان وهو القائل :

«بدء الحكمة مخافة الرب ومعرفة القدوس فهم» . (١)

وهو القائل أيضاً :

«إذا دخلت الحكمة قلبك ولذت المعرفة لنفسك ، فالعقل يحفظك والفهم ينصرك لإنتقاذك من طريق الشر ومن الإنسان المتكلم بالكاذيب ، التاركين سبل الاستقامة للسلوك فى مسالك الظلمة . الفرحين بفعل السوء ، المبتهجين بالكاذيب الشر ، الذين طرقهم معوجة وهم ملتون فى سبلهم» . (٢)

أما مسألة غرام سليمان بالنساء الأجنبية فى آخريات أيامه إلى الدرجة التى أعلن فيها قلبه فانهرف عن عبادة الله وعاد إلى الشرك كما تقول التوراة فالادعاء لا يستقيم أبداً ومنطق سليمان فى هذه القضية بالذات وإليك الدليل من التوراة نفسها .

تقول الأمثال فى سفرها الثانى أيضاً الأعداد من ١٦ إلى ٢٠ :

«لإنتقاذك من المرأة الأجنبية من الغريبة المتملقة بكلامها ؛ التاركة أليف صباها والناسية عهد إلهها ، لأن بيتها يسوخ إلى الموت وسبلها إلى الأخيلة ، كل من دخل

(١) أمثال ٩ : ١٠ .

(٢) أمثال ٢ : ١٠ - ١٥ .

**إليها لا يؤوب ولا يبلغون سبل الحياة ، حتى تسلك في طريق الصالحين وتحفظ
سبل الصديقين» .**

وسليمان هو الموصى أيضاً في نفس السفر السابق :

**«أشرب مياه من جبك ومياه جارية من بئرك . لا تقض بتايحك إلى الخارج .
سواقى مياه في الشوارع . لتكن لك وحدك وليس لأجانب معك . ليكن ينبوعك
مباركاً وأفرح بامرأة شبابك فلم تفتن با ابني بأجنبية وتحتضن غريبة لأن
طرق الإنسان أمام عيني الرب وهو يزن كل سبله» . (١)**

إذا كان هذا فهم سليمان لقضية المرأة الأجنبية وكان يحذر منها مراراً وتكراراً فكيف يقع هو
نفسه في الخطأ؟! وكيف يستدرج الحكيم بشخص الجهل!؟

إن سيرة سليمان قد تعرضت لا شك للتشويه والمبالغة حتى ليستطيع القارئ للتوراة أن يضبط
ذلك في خبرين ورد أحدهما في سفر أخبار الأيام الثاني (٩ : ٥) ويقول :

«وكان لسليمان أربعة آلاف مذود لحيل المراكب» .

بينما يقول الخبر الثاني الذي ورد في سفر الملوك الأول (٤ : ٢٦) :

«وكان لسليمان أربعون ألف مذود لحيل مراكبه» .

ولا يستطيع أحد أن يفسر هذه المبالغة بإرجاعها لخطأ في الترجمة عن النص العبري فاليهود
كانوا لا يعرفون الصفر في أعدادهم في ذلك الوقت ولذلك كانوا يكتبون الأعداد بالكلمات .

إن سيرة سليمان كما وردت في سفر الملوك الأول منقولة عن كتاب (سفر) اسمه أمور سليمان
ويخبرنا سفر أخبار الأيام الثاني أن بقية أمور سليمان الأولى والأخيرة مكتوبة في كتب (أخبار
ناثان النبي ونبوة أخيا الشلونى ورؤى يعدو الرائي على يربعام بن نباط .

... وبعد فسفر أخبار الأيام الثاني لم يخبرنا شيئاً عن إشراك سليمان في أخريات
أيامه .. فهل المبالغة والتضارب في سيرة هذا النبي بسبب تعدد المصادر التي نقلت عنها التوراة
وتدخل السياسة في تشويه الحقيقة مع عدم إغفال أو على الأقل افتراض وجود أعداء في
مملكة إسرائيل لأسرة داود وسليمان . كل هذه الأمور كانت دخلت في خلق سيرة غير
حقيقية لداود وسليمان!؟

(١) أمثال ٥ : ١٥ - ٢١ .

على أن هناك نقطة في غاية الأهمية والخطورة تفسر قبول كتابة التوراة لمثل هذه النصوص بل وضمها للكتاب المقدس على أنها من أعمال الوحي . هذه النقطة تتعلق بمفهوم النبوة في إسرائيل بمعنى نظرة اليهود أو بني إسرائيل لأنبيائهم وشرح ذلك سوف يرد لاحقاً .

لكننا على الأقل فيما يخص المصادر التي نُقل عنها سيرة داود لا نستطيع أن نتجاهل نصاً ورد في ختام سفر أخبار الأيام الأول ينص على أن :

«أمور داود الملك الأولى والأخيرة هي مكتوبة في سفر أخبار صموئيل الرائي وأخبار ناتان النبي وأخبار جاد الرائي» . (١)

إذن فهذه هي المصادر الثلاثة التي ذكرت التوراة أنها سجلت أخبار داود (الملك) وتعاملت معه على هذا الأساس أنه ملك وليس نبياً ، هذه المصادر الثلاثة كانت تروى في الأصل أخبار هؤلاء الثلاثة الذين شاركوا في صنع الأحداث إبان عهد القضاة والملوك ، وصموئيل وجاد وناتان ليسوا هم الرواة في هذه الأسفار الثلاثة بل الرواة الذين كتبوا أخبارهم مجهولون وبالتالي فنحن غير مطالبين بأن نقبل رواية عن مصدر مجهول وننسبها إلى الوحي الإلهي .

بقي من حديث الغواية والزنا في التوراة الكثير لكننا سنكتفي الآن بالإشارة إلى شخصيتين نسائيتين أخرتين . يقول المصدّقون بالعهد القديم إنهما أثرتا تأثيراً كبيراً في مسار تاريخ بني إسرائيل ؛ والمقصودتان هما أستير ويهوديت ؛ وكانتا فتاتين يهوديتين بارعتي الجمال ؛ استخدمتا جمالهما هذا في إنقاذ بني إسرائيل فكلبت التوراة سفرين على اسميهما ؛ نصف أحدهما (أستير) من الأسفار المقبولة (القانونية الأولى) بينما اعتبر نصفه الآخر وكل سفر يهوديت من الأسفار القانونية الثانية . والغريب في الأمر أن الجزء القانوني الأول من سفر أستير أي المتفق على قبوله من اليهود العبرانيين وكل الطوائف المسيحية لم يُذكر فيه اسم الله ولا مرة واحدة ولهذا ظل السفر موضع نقاش بين الطوائف المسيحية إلى أن تنازل البروتستانت وقبلوا عشرة إصحاحات فقط وضموها للأسفار القانونية الأولى !! ونحن لن نناقش السفر لكننا باختصار نشير إلى أنه يعد تذكيراً لخلاص اليهود من مذبحة أعداء لهم وزير فارسي اسمه هامان وبعد نجاتهم منها بفضل أستير الجميلة التي دفع بها ابن عمها إلى قصر الملك (لمثل هذه الظروف) تحول اليهود إلى إبادة أعدائهم ولا يخجل السفر من أن يذكر أخبار الانتقام الوحشي الرهيب بكثير من التفاصيل :

(١) أخبار الأيام الأول ٢٩ : ٢٩ .

«فضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وإهلاك وفعّلوا بمبغضهم كما شاءوا».

«واجتمع سائر اليهود الذين فى أقاليم الملك ونهضوا لأنفسهم واستراحوا من أعدائهم وقتلوا خمسة وسبعين ألفاً» !!

أما القديسة يهوديت فذكرها سوف يأتى فى الحديث عن الأسفار القانونية الثانية .

ملاحظة ختامية : لفظ الزنا اعتبر فى بعض النصوص مرادفاً للفظ الكفر أو الشرك فى معرض التحذير من إخراج مقدمة لمولك إله العمونيين تقول التوراة:

«واقطعه وجميع الفاجرين وراءه بالزنا» (١)

وتقول أيضاً :

«والنفس التى تلتفت إلى الجان والتوابع فتزنى وراءهم وجهك ضد تلك النفس» . (٢)

ومن القتل والزنا إلى وصية أخرى من الوصايا العشر ..

.. لا تسرق

على الحجر المنقوش بأصبع الله جاءت الوصية وعلى لسان موسى تم تبليغها .. فعلى من يفرضها الله ؟! ومن يبلغه موسى ؟! ويوصيه بالآلا يسرق من ؟!

إن الحكم فى الوصية مطلق مثل الأحكام الأخرى . لكن دستور اليهود التوراتى لا يأبى إلا بذر الفساد فى الأرض . أما الأحكام التى تتعلق بالسرقة فتجدها فى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج بتفاصيل كثيرة ملخصها أن السارق يعوض المسروق عن سرقة لكتنا لا نستطيع أن نفهم المغزى من نص يقول :

«إن وجد السارق وهو يتقب فضرب ومات فليس له دم ولكن إن أشرقت عليه

الشمس فله دم» . (٣)

فماذا يفرق هنا بقاء المضروب المصاب عدة ساعات إضافية على قيد الحياة ؟!

وتمضى الأعداد فى نفس السفر توضح أحكام وعقوبات جريمة السرقة وتنص على

(١) لاويين ٢٠ : ٥ .

(٢) لاويين ٢٠ : ٦ .

(٣) الخروج ٢٢ : ٢ .

العناية بالغريب حين تُذكر اليهودى بأنه كان غريباً فى أرض مصر . كذلك تحرم النصوص الربا بل وتزيد فتأمر بالإحسان عندما تطالب المرتهن برد الرهن إن كان ثوباً عندما يأتى المساء على الراهن فلعل هذا الثوب غطاء لصاحبه . كذلك تأمر الأعداد برفض الرشوة (لأن الرشوة تعمى المبصرين) وكل هذا كلام حسن مقبول إلى أن تأتى شريعة التثنية فتقيد إطلاق الحكم وتجعل تحريم السرقة مقصوراً على اليهودى لليهودى بينما تطلقه فعلاً مباحاً حلالاً لأملاك الغريب :

«لا تقرض أخاك بربا . ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض بربا . للأجنى

تقرض بربا» . (١)

إذن فهذا هو حكم التوراة التى نسخت به شريعة الله فانتفت الحكمة من التشريع لأن تطبيقه على هذه الصورة سوف يخلق فوضى وفساداً . فأى منطق سليم لابد أن يعقل الأمور كالاتى :

إذا نظرنا لما يملكه الغريب واستحللناه لأنفسنا فلا نلومنه إذا استحل ما غلكه لنفسه .

وشيوع مثل هذا الأمر لن يولد إلا البغضاء والشقاق .

وأيضاً السرقات الكبيرة التى تخص إسرائيل فقد غضت التوراة عنها الطرف بل حكمت عن يعقوب الذى هو إسرائيل أنه سرق الرب فى قصة ساذجة انخدع على أثرها الرب فثبت له البركة التى لأخيه بعد أن سرق أيضاً من الأخير بكوريته :

«وحدث لما شاخ إسحق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له :

يا ابنى . فقال : هانذا . فقال : إبنى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى فالآن خذ

هلتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيداً واصنع لى أطعمة كما

أحب وآتى بها لأكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت» . (٢)

وسمعت رفقة زوجة إسحق وأم عيسو ويعقوب بالأمر وكنا قد عرفنا من التوراة أن هذه الأم تفضل يعقوب على عيسو (هكذا دوغنا سبب) فلما ذهب الأخير فى رحلة صيده ينفذ أمر أبيه طبخت الأم طبيخاً وألبست يعقوب الأملس جلود جدى الماعز حتى يبدو جسده الأملس كأنه مشعر (مثل ملمس جلد أخيه عيسو) وأعطت الأم يعقوب الأطعمة والخبز وأدخلته على أبيه كليل البصر يطلب منه البركة التى لأخيه . وعلى الرغم من أن يعقوب ميز صوت ابنه وكاد يعرفه أو

(١) التثنية ٢٣ : ٢٠ .

(٢) تكوين ٢٧ : ١ - ٤ .

على الأقل استراب فيه فقد بلع الطعام وحسب أن يعقوب هو عيسو بسبب ملمس الجسد فباركه :
«فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر . ليستعبد لك
شعوب وتسجد لك قبائل . كن سيداً لإخوتك وليسجد لك بنو أمك . ليكون
لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين» . (١)

ويبدو أن يعقوب أسرع فسجل البركة في الشهر العقارى (معذرة فالأمر لا يحتمل إلا ذلك)
حتى إن عيسو حينما عاد فاكتشف هو وأبيه الخدعة التى اشترك فى تدبيرها الأخ والأم فطلب من
أبيه أن يصحح الأوضاع أو على الأقل يباركه هو أيضاً فما كان جواب الأب إلا أن قال :
«قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك» . (٢)

فيسأله عيسو بمرارة :

«أما أبقيت لى بركة؟»

فيعقب إسحق :

«إنى قد جعلته سيداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً وعضلته بحنطة وخمر
فماذا أصنع إليك يا إنى» .

فيقول عيسو لأبيه :

«ألك بركة واحدة فقط يا أبى . باركنى أنا أيضاً يا أبى» .

فيجيبه إسحق :

«هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك . ويلا ندى الماء من فوق ويسيفك تعيش
ولأخيك تستعبد» . (٣)

أتعنى بركة إسحق لعنة لعيسو !؟

هكذا تفهمنا التوراة وهى تحسب أنها ترفع يعقوب درجات .. يعقوب الذى طمع فى الدنيا
فاشترى بكورية أخيه بينما كان عيسو أكثر حكمة ففهم أنها دنيا زائلة لا خير فيها فالآخرة خير
وأبقى لكن أبت العقلية اليهودية إلا أن تفهم غير ذلك فتمسكت بتلايب الدنيا إلى حد السرقة

(١) تكوين ٢٧ : ٢٨ - ٢٩ .

(٢) تكوين ٢٧ : ٣٥ .

(٣) كل القصة المذكورة فى الإصحاح ٢٧ من سفر التكوين .

والخدبة وما هو إلا حديث مفترى :

«قال يعقوب بعنى اليوم بكوريتك . فقال عيسو أنا ماضٍ إلى الموت فلماذا لى بكورية . فقال يعقوب احلف لى اليوم ، فحلف له فباع بكوريتة ليعقوب فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى فاحتر عيسو البكورية» . (١)

وإذا كانت التوراة قد تصرفت فى قصة الذبيح فاستبدلت إسماعيل بإسحق فإن الكتبة لم يملكوا إلا هذه القصص الأسطورية التى تصور النبى يعقوب سارقاً متاجراً وهم يحسبون أنهم بذلك يحسنون صنعا ويهيئون الأمر لإسرائيل ليستحق - حتى لو كان على أسس زائفة - الوعد الإلهى وميراث الأرض .

ومع حكايات التوراة لا ينسدل أبداً ستار الدهشة فهى ذى نخبرنا عن النبى يعقوب (الذى سيصير فيما بعد إسرائيل) أنه احتال على حميه بعد اتفاقهما على أجرة ينالها الأول مقابل خدمته للأخير وحسب رواية التوراة : يخطط يعقوب لذلك بأن يعين بنفسه الأجرة من الغنم كل شاة رقطاع وبلقاء وكل شاة سوادء بين الخرفان وبلقاء ورقطاء بين «المعزى» ، ثم يأخذ يعقوب قضباناً خضراً من لبنى ولوز ودلب ويقشر فيها خطوطاً كاشطاً عن البياض الذى على القضبان ويوقف هذه القضبان التى قشرها فى الأجران فى مساقى الماء حيث كانت الغنم تحبىء لتشرب .

وتوهمت الغنم عند القضبان فولدت مخططات ورقطاء وبلقاء وكان يعقوب يختار الغنم القوى ليفعل به ذلك ويستبعد الضعيف تاركه لحاله !! وبالاختيال أصاب يعقوب ثروة !!

هكذا القصة فى التوراة .. ونحن نستطيع أن نلجأ للعلم ليدحض مثل هذا الكلام ويكشف عن سذاجة المؤلف والحكاية التى قبلها العقل اليهودى لأنها تتسق مع مفاهيمه وبالتالى فهو يريد أن يصدقها ، فمثل هذه القصص ليست غريبة على التوراة وزاوية البناء فيها تعطى لليهودى إشارة خضراء لاستخدام أساليب الاحتيال وصولاً للغاية المادية والفوز بها ، لايغنى المرء فى ذلك الأمر أن يتبع ما يستوجيه كريم الخلق أو تعاليم السماء .

ونظرة إله إسرائيل فى مثل هذه الأمور نظرة محايدة فى الغالب لا يتدخل مادامت نهاية المشوار تعد مغنماً لإسرائيل بل تحتال التوراة أحياناً على الإله نفسه فتدعى أن يعقوب نسب حيلة خداعه لحميه وخاله إلى (الله) فتضفى عليها حالة من القداسة .. وها هو يعقوب يحدث زوجته

(الأختين) فيقول لهما :

«ولكن إله أبى كان معى وأنتما تعلمان أن بكل قوتى خدمت أياكما وأما أبوكما فغدر بى وغير أجرتى عشر مرات لكن الله لم يسمح له أن يصنع بى شراً . إن قال هكذا الرقط تكون أجرتك ولدت الغنم رقطاً وإن قال هكذا المخططة تكون أجرتك ولدت كل الغنم مخططة وقد سلب الله مواشى أياكما وأعطانى» (١) .

والنص السابق يحاول أن يرد الأمر لمشيئة الله أو على الأقل يوهمنا بذلك وينفى عن يعقوب اختياره أو السعى إليه !!

ومن تلك إلى سرقة أخرى نسبتها التوراة للرب ولموسى (حاشا لله وتنزه نبيه عن ذلك) ، وتقول القصة التوراتية إنه حين خروج بنى إسرائيل من مصر أن أمر الله موسى :

« تكلم فى مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبها أمتعة فضة وأمتعة ذهب . وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين ... وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً . وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين» .

ما الحكمة فى سلب المصريين أمتعتهم ؟!

أىكون الانتقام ؟!

لم يكن عامة الشعب المصرى طرفاً فى المعركة الدائرة بين فرعون وبنى إسرائيل فلماذا الانتقام ؟!

أىكون السلب للسلب ؟!

لماذا تركنا التوراة - دائماً - فريسة للبحث عن مبررات أخلاقية ؟!

.. لا أدرى ؟!

إن ما سبق يتناقض مع ما ورد فى قصة عخان بن كرمى بن زبدي بن زارح الذى من سبط يهوذا الذى سرق من إسرائيل

«فحمى غضب الرب على بنى إسرائيل» . (٢)

(١) تكوين ٣١ : ٤ - ٩ .

(٢) القصة وردت فى سفر يشوع الإصحاح السابع .

السرقات الأولى باركها الرب والسرقه الأخيرة حمى عليها غضبه لأنها وقعت فى إسرائيل !!
إنه بالتأكيد ليس رب إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى بل رب الكهنة كاتبى التوراة .

- اكرم أبائك وأمك

وتمضى الوصايا تحض على إكرام الأب والأم وتقرن ذلك بطول العمر (طول الأيام) على الأرض التى يعطيها الرب الإله لبنى إسرائيل ، وهذه الوصية بالتحديد لا نجد لها ظلاً فى التوراة إلا فيما ندر تأتى على شكل وصايا فى أسفار الحكمة .

- لا تشته

أما حديث الاشتهااء فنلاحظ أيضاً تقيده داخل المجتمع اليهودى :

«لا تشته بيت قريبك . لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمتة ولا ثوره ولا
حماره ولا شيئاً مما لقريبك» .

فإذا قصر النص تحريم هذا الاشتهااء على ما للقريب فقط فقد أطلق اليد فيما يملكه
الغريب وهذا مما يخالف شريعة الله فى الأرض ، وعلى ذلك فقد أخبرتنا حوادث
التوراة فى حواشيتها عن تأصيل صفة الجشع فى بنى إسرائيل وتخطيها أيضاً لحدود
الشريعة . فلم يعد اليهودى يفرق بين الغريب والقريب وما هو النبى أرميا يصف حال
اليهود إبان السبى فيقول :

«من صغيرهم إلى كبيرهم كل واحد مولع بالربح ومن النبى إلى الكاهن كل واحد
يعمل بالكذب» . (١)

ويقول أيضاً النبى أشعيا :

«التفتوا جميعاً إلى طرقهم كل واحد إلى الربح» (٢) .

ولابد من سائل : إذا كنا نُشكك فى كثير من نصوص التوراة فلماذا نقبل النصوص الأخيرة
ونستشهد بها ؟!

إن الأمر يتعلق باعتقاد سيطر على كاتبى التوراة إبان السبى وبالذات عزرا الذى

(١) أرميا ٦ : ١٣ .

(٢) أشعيا ٥٦ : ١١ .

تمكن منه هذا الاعتقاد فجعله يقبل كل النصوص التي تجلد الذات اليهودية وبالذات نصوص الأنبياء المتأخرين الذين سبقوه بقليل أو عاصروه ، وكانت هذه النصوص في أغلبها تقرر حقيقة واقعة وتصور هذا اللون من الفساد الاجتماعي الذي أودى بمملكتي اليهود وشعبيهما وساقهما إلى السبي .



إن الوصايا العشر في صورتها الخالصة وتشريعاتها المطلقة دون تقييد ودون تمييز لليهودي هي الأقرب إلى حقيقة الرسالة السماوية التي أرسل الله بها نبيه موسى يدعو الناس إلى التوحيد الخالص ويعلمهم مكارم الأخلاق ، وهي أيضاً جوهر الرسالات السماوية والناموس الإلهي الذي ما نقضه عيسى بن مريم وما بُعث لينقضه فلما انحرفت الرسالة بُعث محمد صلى الله عليه وسلم فنزل عليه القرآن يحمل تلك الوصايا :

بسم الله الرحمن الرحيم

**«قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً
ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر
منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم
تعقلون» (١٥١) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا
الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى
ويعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون» (١٥٢) . (١) صدق الله العظيم**

هي تقريباً نص الوصايا العشر ولأنها من كلام الله الذي لم يطرأ عليه تحريف ولا تبديل فهي لم تصدر خلق الله لصالح بنى إسرائيل بل دعت للعدل والمساواة حتى لو كان ذا قربى الإلهي لا يتخب ولا يختار .. كلنا لآدم وآدم من تراب ■

(١) سورة الأنعام الآيات (١٥١ : ١٥٢) .

الفصل الثالث

الأسطورة والدراما في التوراة

رسالات السماء والحضارات (فرعون وموسى)

أخبرتنا سيرة التاريخ أن رسالات السماء كانت على الدوام تنزل على رجل لا يملك من القوة المادية إلا النذر اليسير الذى بالكاد يتيح له أن يبدأ فى نشر دعوته وسط قوم ضعاف مغلوبين على أمرهم مقابل مدينيات غاشمة وثنية مشرقة مارقة عن أمر الله بلغت من أسباب القوة المادية ما جعلها تحسب أنها تستطيع أن تملك أسباب قوتها وجبروتها فتعبد ذاتها ورمز قوتها وكلما أوغلت فى ذلك ابتعدت عن أسباب التوحيد الخالص والمعرفة الحقة للإله .

ونستطيع أن نرصد ذلك فى رحلة الرسالات السماوية الثلاث الكبرى ، فرسالة موسى رفضتها حضارة مصر القديمة ورمزها الأعلى فرعون ، وتعاليم عيسى بن مريم تصادمت مع الإمبراطورية الرومانية التى كانت قد بلغت - آنذاك - أوج قوتها ، والإسلام بدا كأنه لن يستطيع اختراق حدود الجزيرة العربية التى تخامتها مدينيات الفرس والروم بجيوشها وعتادها . وبحساب العقول المجردة فلا مجال للمقارنة بين تلك المدينيات وأصحاب الرسالات وأتباعهم المغلوبين لا محالة .

وللدهشة فكانت العجلة تدور دائماً فى عكس اتجاهها فتصير الغلبة فى النهاية لهؤلاء المستضعفين وتتنامى انتصاراتهم بشكل مطرد مع ثبات إيمانهم ومع ضعف هذا الإيمان أو زعزعته يعود المؤشر هابطاً .

وفى حكاية موسى نبي الله ، لا أحد يستطيع أن ينكر معجزات هذا النبي الرسول التى صنعها فى صراعه ضد فرعون ، لكن التوراة تنحرف بهذه المعجزات فتتحو منحى الأسطورة . وأول انحراف وأظهره هو العنصرية التى تدّعيها التوراة على موسى فنراه فى إصحاحات سفر الخروج يحادث فرعون فيقول له :

«الرب إله العبرانيين أرسلنى» أو «أطلق شعبى ليعبدنى فى البرية» .

فهل كان رب موسى هو إله للعبرانيين فقط ؟!

الحقيقة أن الأمر هنا يتعلق بالأرض الموعودة فالعنصرية هى المطية التى ركبها اليهود لتثبت

أحقيتهم في تلك الأرض .

«واتخذكم لى شعباً وأكون لكم إلهاً وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي
أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب وأعطيتكم إياها ميراثاً» . (١)

ثم هذا الادعاء الكاذب على الإله بأنه لا يستطيع التمييز بين بنى إسرائيل والمصريين إلا بعلامة
وهو في الحقيقة سلب لقدرة الإله في المعرفة أو هو خلق سبب لأسطورة الفصح ، يقول النص
التوراتي :

«فلما موسى جميع شيوخ إسرائيل وقال لهم اسحبوا وخذوا لكم غنماً بحسب
عشائركم واذبحوا الفصح ، وخذوا باقة زوفاً واغمسوها في الدم الذي في الطست
وأنتم لا يخرج أحد منكم من باب بيته حتى الصباح . فإن الرب يجتاز ليضرب
المصريين فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب ولا يدع
المهلك يدخل بيوتكم ليضرب فتحفظون هذا الأمر فريضة لك ولأولادك إلى
الأبد» . (٢)

ولقد سبقت هذه الضربة وتلتها ضربات للمصريين لكن الإله لم يطلب من بنى إسرائيل
مساعدة إلا في هذه الضربة بالتحديد فهلا أخبرتنا التوراة عن السبب ؟!
وعلى أثر هذه الأسطورة تدعى التوراة - أيضاً - أن الإله طلب من موسى تقديس كل بكر
(كل فاتح رحم) من بنى إسرائيل ..

«وكلم الرب موسى قائلاً . قل لى كل بكر كل فاتح رحم من بنى إسرائيل
ومن البهائم أنه لى» . (٣)

ثم يتم نسخ هذا الحكم في أعداد تالية فيأمر بأن يفدى بكر الحمار بشاة أو بكسر عنق
الحمار البكر !! وكذلك يفدى بكر الإنسان بذبيحة .

إن أسطورة الابن البكر لا ترتبط في إسرائيل بحادث قتل الإله لأبكار المصريين والدليل هو
ما روته التوراة عن حادث وقع في زمن أقدم من زمن الخروج حين صارع يعقوب أخيه عيسو
على بكوريته ، وبالتالي فمكانة الابن البكر (المقدسة) لم تصنعها حادثة الخروج ولكن كانت قد

(١) الخروج ٦ : ٧ - ٨ .

(٢) خروج ١٢ : ٢١ - ٢٩ .

(٣) الخروج ١٣ : ١ .

صنعتها السيرة الشعبية الجمعية ورسختها على مرور السنين ليكتسب الابن البكر مكانة متميزة في العائلة ويترتب له حقوق إضافية في الميراث فيحصل على نصيب اثنين وليس واحد (تثنية ٢١ : ١٧) والخلافة في الملك (أخبار الأيام الثاني ٢١ : ٣ - ٤) والاختصاص ببركة الأب (قصة بركة إسحق ويعقوب) كذلك تقول التوراة بأن الله اختار اللاويين ليعدموه نيابة عن سائر أبكار اليهود (العدد ٣ : ١١ - ١٣).

ومن أعمال الأسطورة أيضاً في صراع النبي موسى سلام الله عليه ضد فرعون هو المبالغة في فصول الصراع :

«وكان موسى وهارون يفعلان كل هذه العجائب أمام فرعون ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يطلق بني إسرائيل من أرضه» . (١)

أما السبب الذي شدد الرب من أجله قلب فرعون فكان كما تقول التوراة : «لكي تكثر عجائبه في أرض مصر» !! وهذا الادعاء لا بد يستتبعه سؤال :

أكانت معجزات نبي الله موسى موجهة في الأساس لفرعون أم لليهود (ليثبت إيمانهم) أم كان عرضاً يُقدم بلا هدف ؟!

والسؤال بصيغة أخرى : لماذا أراد الله أن تكثر عجائبه في أرض مصر ؟!

إننا نستطيع أن نفسر هذه الجملة لو عرفنا نظرة التوراة لمصر أو كما يطلق المؤرخون عليها (مصر التوراتية) وتجربة بني إسرائيل في مصر التي اعتبرت تجربة مذلة وعبودية وصارت على هذا المثال عنصراً أصيلاً من عناصر تجارب التشتت والهوان لليهود عبر تاريخهم الديني .

نشتم أيضاً رائحة الأسطورة في واقعة وردت في سفر الخروج تتعلق بطعام بني إسرائيل السماوي (المن) ويوم السبت ، وتقول الواقعة : إن بني إسرائيل - من تلقاء أنفسهم - التقطوا في اليوم السادس (قبل يوم السبت) من المن خبزاً مضاعفاً يكفيهم ليومين فلما جاء رؤساء الجماعة يخبرون موسى عن هذا الأمر جاوبهم بأن الرب هو الذي أمر بهذا لأن الغد عطلة فهو سبت مقدس للرب ، وطلب منهم أن يحتفظوا بما يفيض عندهم لليوم السابع الذي سينقطع فيه المن .

(١) الخروج ١١ : ١٠ .

ثم تأتى التوراة بعد قليل لتخبرنا بقصة (دون مناسبة) مؤداها أن جماعة من الشعب خرجت فى اليوم السابع تلتقط المنّ فلما لم تجده قال الرب لموسى مؤنباً :

«إلى متى تأبون أن تحفظوا وصاياى وشرائعى . أنظروا إن الرب أعطاكم السبت لذلك هو يعطيكم فى اليوم السادس خبز يومين فاستراح الشعب فى اليوم السابع» .

إن أمر هذه القصة يعيدنا - أيضاً - مباشرة لاسترجاع ما قلناه عن أسطورة يوم السبت المقدس.

من الأمور التى تدخلت فيها الأسطورة فجعلتها فى التوراة غير واضحة بل مشوشة مسألة رؤية نبي الله موسى للإله وطريقة اتصاله به .

وفى ذلك نرصد ما ورد فى التوراة التى تقول مثلاً فى أحد أعدادها على لسان الله موجهاً كلماته إلى موسى :

«قال لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يراى ويعيش» . (١)

فكيف كان يحدث فعل الرؤية ؟! (رؤية موسى للإله)

تصف التوراة ذلك فى عدد تال للعدد السابق فتقول :

«قال الرب هو ذا عندى مكان فتقف على الصخرة ويكون منى اجتاز مجدى
أنى أضعك فى نقرة من الصخرة وأسترك ييدى حتى اجتاز ، ثم أرفع يدي فتتظر
ورائى وأما وجهى فلا ترى» . (٢)

إن هذه النصوص توقعنا فى حيرة لا نملك إزاءها إلا أن نتساءل ؟! هل رأى موسى الله (من الخلف ولم ينظره من الأمام) ؟!

وتزداد حيرتنا عندما تقرر لنا النصوص التوراتية فى أعداد أخرى أن موسى كان يتصل بالإله اتصالاً مباشراً :

«ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه» .

(١) الخروج ٣٣ : ٢٠ .

(٢) الخروج ٣٣ : ٢١ - ٢٣ .

فهل نكتفى بهذا النص الأخير فى هذه القضية ونطلب له تفسيراً من المتأولين وما أكثرهم ؟!

الكهنة واللاويون Emer

لاوى هو أحد أبناء يعقوب فهو سبط من الأسباط الاثنى عشر الذين مثلوا رؤوس جماعة بنى إسرائيل ، وعندما هاجر يعقوب إلى مصر كان لاوى وأخوته من المهاجرين معه ومن بيت لاوى فى مصر جاء النبی موسى وأخوه هارون وأختهما مريم .

«وفى مصر تناسل لاوى فولد جرشون وقهات ومرارى . ومن بنى قهات جاء عيرام الذى تزوج يوكابد عمته ^(١) فولدت له ناداب وأيهو والعازار وإثامار . والعازار كان له ابن اسمه فينحاس» . ^(٢)

وفى الإصحاح الثامن والعشرين من سفر الخروج نجد أول نص صريح فى رسالة يطلب فيها إله إسرائيل من موسى أن يقرب إليه هارون أخيه وبنيه ناداب وأيهو والعازار وإثامار للكهانة ، ويملى الإله أيضاً على موسى طقوس هذا فيأمره أن يضع لهم ثياباً مقدسة من أجل (المجد والبهاء) ويحدد الإله فى أعداد كثيرة مواصفات هذه الملابس التى لابد أن تشتمل رداء وجبة وقميصاً وعمامة ومنطقة .. إلى آخره

يأمر الإله أيضاً بوجوب ارتداء الكهنة لهذه الملابس عند دخولهم خيمة الاجتماع أو مع اقترابهم من المذبح للخدمة (لئلا يحملوا إثماً ويموتوا) ويكون هذا الأمر فريضة أبدية لهارون ونسله» . ^(٣)

أمرى الإله أيضاً على موسى طقوس تقديس الكهنة التى تستغرق هى الأخرى أعداداً كثيرة تكاد تبلغ إصحاحاً كاملاً من إصحاحات سفر الخروج وتشمل فيما تشمل عملية المسح المقدس وتأسيساً على هذه الطقوس صار هارون أخو موسى أول رئيس للكهنة وصار أبناؤه كهنة ، وعندما مات هارون خلفه فى الرئاسة ابنه العازار الذى بقيت رئاسة الكهنوت فى بيته إلى أيام الكاهن عالى فتكلم الرب عليه بسبب فساد أبنيه اللذين كانا كاهنين لكنهما كانا فاسقين ووصل حد انحرافهما أنهما كانا يضاجعان النساء المجتمعات فى باب خيمة الاجتماع ويسبب هذا نقل الرب رسالة إلى عالى الكاهن جاء فيها :

(١) خروج ٢ : ٢٢ .

(٢) كانت الشريعة اليهودية فى ذلك الوقت لا تحرم الزواج من العمة .

(٣) ٢٨ : ٤٣ .

«ها هو ذا تأتى أيام أقطع فيها ذراعك وذراع بيت أبيك حتى لا يكون شيخ فى بيتك وترى ضيق المسكن ... وجميع ذرية بيتك يموتون شباناً» .

على أن سلالة الكهانة ظلت فى بيت على الذى يتسمى إلى العازار بن هارون إلى أن جاء النبى سليمان فعزل رئيس الكهنة (أياثار) الذى يتسمى إلى هذا البيت وعين بدلاً منه صادق الذى يتسمى إلى بيت إيثامار بن هارون أيضاً .

«وطرد سليمان أياثار عن أن يكون كاهناً للرب لإتمام كلام الرب الذى تكلم به على بيت على» . (١)

هكذا تقول لنا التوراة : إن سليمان كان بهذا القرار يتمم كلام الرب على أن التوراة تخبرنا أيضاً أن سليمان فعل ذلك ليس من أجل الرب ولكن من أجل الإطاحة بمن وقفوا ضده وحاولوا تعيين أخيه (أدونيا) خلفاً فى الحكم لأبيهما داود ، فبعد أن يسرد سفر الملوك فى إصحاحه الأولين أخبار تخلص سليمان من الذين وقفوا مع أخيه أدونيا وحاولوا تنصيبه ملكاً ينتهى الإصحاح الثانى بعبارة «وثبت للملك بيد سليمان» .

وفى ما بعد صار منصب الكهانة فى إسرائيل مطمعاً يشتري بالمال لأنه منصب يجلب الثروة والسلطان والجاه . (٢)

وإذا كانت التوراة تذكر أن اختيار بيت هارون للكهانة جاء بتكليف إلهى فإن هناك قصة فى التوراة تكرر هذا التكليف الذى تدمر عليه نعر من إسرائيل وحاجوا موسى فى ذلك وعند ذلك التجأ موسى للإله ، ولما كان بنو إسرائيل لا يؤمنون إلا ببرهان مادى فقد كلم الرب موسى أن يقدم كل سبط عصا منقوشاً عليها اسمه ، وعلى عصا لاوى يكتب اسم هارون وأن هذه العصى فى خيمة الاجتماع أمام الشهادة والرجل الذى يختاره الرب سوف تفرخ عصاه .

وفعل موسى ما أمره الرب وفى الغد كان أن أفرخت عصا هارون فازدهرت وأنضجت لوزاً فكان هذا علامة من الرب على تفضيل هارون على جميع بنى إسرائيل فصار هذا بمثابة تعيين من الإله وبمقتضاه أصبح كل ذكر من ذرية هارون كاهناً للرب .

إن حديث الكهنة فى التوراة الذى يشمل هذا الذخم الطقسى الذى يلزمهم فى هيئتهم ووظائفهم يرسخ مكانتهم حتى ليصيروا فى مواضع كثيرة واسطة بين الإله والشعب ، أما كثرة

(١) للملك الأول ٢ : ٢٧ .

(٢) للجمع اليهودى (زكى شودة) .

حقوقهم التى تنص عليها التوراة بالإضافة إلى الحقوق المعنوية التى أشرنا لها سالفاً والتى على صورتها تلك فاقت حقوق الملوك والحكام فى أحيان كثيرة ، كل هذا يجعلنا نبحت الأمر من وجهة نظر أخرى أو من زاوية تبحت فى منشأ تلك الوظيفة الدينية وعلى هذا فلا بد أن نسأل بجديّة : هل كانت الكهانة أمراً سماوياً لازم الرسالة التى نزلت على موسى ؟! ثم هل كانت هذه الوظيفة معروفة بين بنى إسرائيل قبل موسى ؟! وأخيراً هل كانت شريعة الله المنزلة على موسى تستلزم تلك الخدمة الدينية لتشيبتها وتثبيت الإيمان فى قلوب أتباعها ؟!

إن التوراة تخبرنا فى سفرها الثانى (سفر الخروج) عن كاهن مدين حمو موسى وتخبرنا عن تقديمه للذبائح وهو أول ذكر لهذه الذبائح منذ اضطلاع موسى بأمر الرسالة (تبعاً لإصحاحات التوراة) وخروجه مع الشعب ؛ وأول صدام له مع سكان متقدمين فى شبه جزيرة سيناء (عمالق).

«فأخذ يثرون حمو موسى محرقة وذبائح لله وجاء هارون وجميع شيوخ إسرائيل لياكلوا طعاماً مع حمى موسى أمام الله» . (١)

حمو موسى هذا الشيخ الورع الذى تصفه التوراة بأنه كاهن هو الذى نصح موسى بتنظيم أمور القضاء فى الشعب ثم اختفت سيرة هذا الكاهن من حديث التوراة ولم يعد يذكر !! ولم تخبرنا النصوص أو تظهر إشارة عن ديانة هذا الكاهن .. فهل كان نبياً ؟! هل كان رجلاً مؤمناً على دين إبراهيم وآباء إسرائيل إسحق ويعقوب ؟! هل آمن برسالة موسى واتبعه ؟! لم تخبرنا التوراة لكنها قالت لنا أنه كاهن مديان وحسب .

.. ولم يكن بنو إسرائيل على عهد آبائهم الأولين يعرفون الكهانة فلم يصادفنا ذلك فى سيرة إبراهيم أو سيرة أبنائه وأحفاده وكان رؤساء الشعب هم الذين يقدمون الأضحية لله عن الجماعة ، وفى عهد موسى لم يكن الأمر يحتاج إلى وسيط بين الشعب والإله مع وجود موسى سلام الله عليه بينما هارون كان وسيطاً بين موسى وفرعون فيتلقى موسى كلمات الله ويتحدث عنه هارون بسبب بلاغته .

ثم تأتى التوراة تخبرنا أن الإله هو الذى أمر بالكهانة وعبر مدخل عنصرى يرد الأمر فى التوراة على هذا الشكل :

«وانتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقلّسة» .

(١) خروج ١٨ : ١٢ .

ثم يترى ذكر لفظ كهنة وكهانة بعد ذلك إلى أن يأتى نص صريح يأمر فيه الإله موسى :

«وقرب إليك هارون أخاك وبنيه معه من بين بنى إسرائيل ليكون لى واصنع ثياباً مقدسة لهارون .. إلى آخره» ، إلى أن يتم تفصيل طقوس التكهن وصناعة المذبح الذى يُقدم عليه التقدّمات مع بيان خطواتها كذا الأعطار والبخور .

وفى هذا نحن لا نستطيع أن تفصل قصة الكهانة عن قصة ارتداد بنى إسرائيل الأول بعد خروجهم من مصر وإجبارهم لهارون (الكاهن) لقيادة هذا الارتداد بصناعة العجل الذهبى حتى يعبد الشعب ويحدث هذا بينما موسى غائب فى لقائه مع الله .

ومع سفر اللاويين تبدأ النصوص تكريس مكانة الكهنة وإقرار الطقوس الشكلية التى ادعت التوراة أن موسى كان وسيطاً فى توصيلها من الإله لهارون (كبير الكهنة) هذه الطقوس التى يوردها السفر (اللاويين) بتفصيلات كثيرة وبالذات التقدّمات والذبائح .

ويبدو أن الأمر كله مدسوس على سيرة موسى وهارون وأن هذه الطقوس الشكلية التى هى فى حقيقتها حقوق مادية للكهنة دخلت الديانة اليهودية بعد موسى وهارون اعتقاداً من رجال الدين اليهودى بأنهم ينظمون ديانة اليهود .

وأوضح دليل على ذلك نأخذه من التوراة نفسها وهو خاص بمسألة التقدّمات والأضحية التى تستغرق مساحة كبيرة فى الشكل التنظيمى للطقوس الكهنية ويكشف لنا ذلك النبى أرميا فى معرض توبيخه لليهود فىصرح :

«هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل . ضموا محروقاتكم إلى ذبائحكم وكلوا لحماً لأنى لم أكلم آباتكم . ولا أوصيتهم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة محرقة وضيعة . بل إنما أوصيتهم بهذا الأمر قائلاً : اسمعوا صوتى فأكون لكم إلهاً وأنتم تكونون لى شعباً وسيروا فى كل الطريق الذى أوصيكم به ليحسن إليكم» . (١)

والنص صريح وهو أكبر دليل على أن شعب إسرائيل انحرف بوصية الله وحولها إلى طقوس شكلية خالية من حقيقة الإيمان وما كان عزرا جامع التوراة يستطيع أن يغير كثيراً فيما تركه النبى أرميا الذى كانت حياته قريبة من زمن جمع التوراة وربما ضم سفره بعد عزرا بقليل مثل كثير من الأسفار ثم أن كلمات أرميا وغيره من الأنبياء الأخر قبلها بنو إسرائيل على صورتها فى زمن جلد الذات للبحث عن الخلاص .

(١) أرميا ٧ : ٢١ - ٢٣ .

وحتى لا نتوه عن قضيتنا الأساسية فسوف نعود لأعمال الكهانة ومع عودتنا هذه سوف نضطر للرجوع إلى التراث المصرى القديم ونحن نذكر بالزمن الذى عاشه بنو إسرائيل فى مصر ونشير أيضاً إلى أن الرابطة بمصر لم تنقطع بعد خروج بنى إسرائيل منها واستيطانهم فلسطين . وتخيرنا التوراة أن الأواصر زادت فى عهد ازدهار مملكة إسرائيل إلى الدرجة التى صاهر فيها النبی سليمان فرعون مصر وسواء أكانت هذه القصة حقيقية أو مجرد ادعاء مبنى على الأسطورة فإن دلالاتها تشير إلى استمرار الاتصال بمصر ومن ثم حضارتها وأن التأثير المصرى ظل قائماً على بنى إسرائيل ذلك الشعب الرعوى العارى من مظاهر الحضرة فى ذلك الزمن .

إن لفظ كاهن فى المدنية المصرية القديمة ^(١) كان يطلق على القائمين على خدمة المعبد أو الإله ، والمعبد محرم على الجماهير فهو مكان للطهارة وعلى الكهنة التزام الحفاظ على هذه الطهارة ينسحب هذا الالتزام لجسدهم ذاته فكانوا يلتزمون بالختان ^(٢) وبطقوس معينة فى اللبس ، كذلك كان لزاماً على الكاهن أن يتلقى العلوم اللاهوتية للقيام بواجباته .

كانت هناك أيضاً أسر محددة تتوارث الخدمة الكهنوتية فلما طال الفساد ذلك النوع من الخدمة صارت المناصب الكهنوتية سلعة تباع وتُشترى . ^(٣)

والتزم التنظيم الكهنوتى المصرى شكلاً فكان ينقسم إلى أربعة أقسام : الأول منصب كبير الكهنة (الكاهن الأول) وكان لهذا الكاهن فى بعض الأحيان دوراً سياسياً هاماً حتى إنه انتحل لنفسه أحياناً مركز الملك ، ويلى الكاهن الأول كبير الكهنة ثم يأتى بعد ذلك الكهنة الصغار ومنهم تخرج طائفة الأخصائيين التى تشمل كتبة بيت الحياة والحكماء والمرتلين والكهنة الفلكيين ثم الطائفة الرابعة التى تشمل موظفى المعابد الموسيقيين وعازفى القيثارة والناى ونافخى البوق .

ومقارنة سريعة بين التنظيم الكهنوتى المصرى ومثله اليهودى سوف تعطينا بلا شك دليلاً على أن هذا النظام السابق نُقل - تقريباً - بكامله إلى النظام الكهنوتى فى إسرائيل ، مع الوضع فى الحسبان أن الحضارة المصرية وتنظيماتها الدينية سابقة ومستقرة بزمان كبير .

لقد قلنا إن مكانة الكهنة فى إسرائيل قد استقرت ورسخت بعد غياب موسى وهارون عن

(١) معجم الحضارة المصرية القديمة .

(٢) عرف المصريون شريعة الختان قبل الشعوب العبرانية .

(٣) نفس السيناريو حدث فى إسرائيل .

مسرح الأحداث بينما يقول لنا سفر العدد فى إصحاحه الثامن عشر فى رسالة من الإله لهارون :

«وأما أنت وبنوك معك فتحفظون كهنتكم مع ما للمذبح وما هو داخل الحجاب
وتخدمون خدمة عطية أعطيت كهنتكم» . (١)

فهل كانت حقاً الرسالة من الإله ؟!

إن نظرة على حقوق الكهنة المادية والدينية التى رتبها التوراة لهم قد تكون كفيلاً بالإجابة عن
السؤال .

فى نفس السفر (العدد) ونفس الإصحاح (الثامن عشر) يعين (الرب) حقوق الكهنة لهارون
فيقول له :

«قد أعطيتك حراسة رفائى مع جميع أقدس بنى إسرائيل لك أعطيتها حق المسحة
ولبنيك فريضة دهرية هذا يكون لك من قدس الأقداس من النار كل قرابينهم مع
كل تقدماتهم وكل ذبائح خطاياهم وكل ذبائح آثامهم التى يردونها لى فى قدس
أقدس لك ولبنيك . فى قدس الأقداس تأكلها الرفيعة من عطاياهم مع
ترديدات بنى إسرائيل كل دسم الزيت المسطار والحنطة . أبقارهن التى
يعطونها للرب لك أعطيتها أبقار كل ما فى أرضهم التى يقدمونها للرب لك
تكون . كل محرّم فى إسرائيل يكون لك كل فاتح رحم من كل جسد يقدمونه
للرب من الناس (٢) ومن البهائم يكون لك جميع رفائع الأقداس التى يرفعها
بنو إسرائيل للرب أعطيتها لك ولبنيك وبناتك (٣) معك حقاً دهرياً» .

كان أيضاً للكهنة نصيب فى غنائم الحرب وفى كل ذبيحة يتم ذبحها لأى سبب للكاهن فيها
الساق والفكين والكرش !

وهكذا كان نصيب الرب فى إسرائيل يذهب فى الحقيقة إلى الكهنة .

وفى مقابل هذه الحقوق نص التشريع فى نفس السفر على حرمان بنى هارون من نصيبهم فى
أرض إسرائيل .

(١) ١٨ : ٧ .

(٢) نصت الشريعة اليهودية على استبدال بكر الانسان بشاة .

(٣) ذكر البنات جاء فقط مع الرفائع التى للرب .. لماذا ؟!

«وقال الرب لهارون لا تنال نصيباً في أرضهم ولا يكون لك قسم في وسطهم أنا قسمك ونصيبك في وسط بني إسرائيل» .

ولا نملك إلا الدهشة عندما نعرف في أسفار لاحقة أن الإله قد نسخ هذا الحكم فعين نصيباً من الأرض لبني هارون (مدن ومسارح) وهذا ما تضمنه سفر يشوع في إصحاحه الحادى والعشرين :

«وأعطوا لبني هارون الكاهن مدينة ملجأ القاتل حيرون مع مسارحها ولبنه ومسارحها ويتير ومسرحها واشتموع ومسرحها وحولون ومسرحها ودير ومسرحها وعين ومسرحها ويطه ومسرحها وعين شمس ومسرحها جبعون ومسرحها وجبع ومسرحها عناثوث ومسرحها وعلمون ومسرحها جميع مدن بني هارون الكهنة ثلاث عشرة مدينة ومسرحها» . (١)

إن سفر يشوع الذى تضمن هذه الامتيازات الأخيرة للكهنة وبمقتضاها تم تعيين مساحات من الأرض (موحى بها) كما تقول التوراة ، هذا السفر من الأسفار التى لا يعترف بها السامريون ومعنى هذا أنه أضيف فى فترة متأخرة للتوراة ربما على عهد عزرا وهذا معناه أيضاً أنه كتب فى فترة لاحقة على موت النبي موسى وهذا بالطبع منطقى لأنه يروى أحداث ما بعد موت موسى ، ومن ذلك نفهم انه عندما طمع الكهنة فى حقوق مادية جديدة تتمثل فى تعيين مدن لهم ، تقول رواية التوراة أن رؤساء آباء اللاويين تقدموا إلى العازار الكاهن ويشوع بن نون القائد ورؤساء آباء أسباط بني إسرائيل وكلموهم فى شيلوة فى أرض كنعان قائلين :

«قد أمر الرب على يد موسى أن نعطى ملناً للسكن مع مسارحها لبهائمتنا !»

انتهت رواية التوراة ولم تعقب فى الأمر وبدأت بعدها مباشرة رواية تقسيم الأرض بين عشائر اللاويين بالقرعة !

ونفتح قوسين ونضع فيهما الآتى :

«ألم يقل الرب من قبل لهارون الذى هو رأس وأب من آباء سبط لاوى : لا تنال نصيباً فى أرضهم ولا يكون لك قسم فى وسطهم أنا قسمك ونصيبك» !!

إن هذا التناقض يثير الريبة يفتح باب الظنون الذى يتوارى خلفه الكهنة واللاويين .

على أن أخطر الحقوق التى رتبها الكهنة لأنفسهم هو حق الوساطة بين بني إسرائيل والإله

(١) المسرح هو مرعى طبيعى لتربية المواشى (من مصدر سرح يسرح).

والتي أسموها البركة أو المباركة :

«وكلم الرب موسى قائلاً : كلم هارون وبنيه قائلاً هكذا تباركون بنى إسرائيل
قائلين لهم يباركك الرب ويحرسك .. يرضى الرب وجهه عليك ويرحمك .. يرفع
الرب وجهه عليك ويمنحك سلاماً فيجعلون اسمى على بنى إسرائيل وأنا
أباركهم»^(١).

إن هذه الكلمات السابقة لابد أن تنبه الذاكرة لقصة سرقة يعقوب لبركة أبيه إسحق تلك القصة
التي رسخت في التراث الدينى الأسطورى لبنى إسرائيل مفهوم قصر البركة على أشخاص معينين
يكون هؤلاء الأشخاص واسطة وهمزة وصل بينهم وبين السماء وعلى السماء أن تقبل بركتهم بلا
نقض ولا إبرام .

وكما رتبت التوراة تلك الحقوق للكهنة رتبت أيضاً عليهم واجبات أغلبها يتعلق بطقوس
التطهر وهى طقوس قريبة من تلك التى عرفتھا معابد المصريين القدماء وهى فى أغلبها تحفظ الكهنة
من التنجس والدنس وذهاب العقل بالمسكر وذلك فى حال دخول المقدس للخدمة الدينية وتحت
هذا البند السابق تدخل طقوس الاغتسال الدائم والمسح بالدهن المقدس المركب من أفخر الأطياب .

أيضاً كان من أهم أعمال الكهنة الوجوبية تقديم القرابين والذبائح اليومية والأسبوعية
والشهرية والسنوية والخدمة فى الاحتفالات الدينية والعناية بالآنية المقدسة والنار المقدسة
وكل ما هو مقدس فى خيمة الاجتماع أو المعبد (فيما بعد) كذا حمل تابوت العهد وتولى بعض
شئون القضاء واستشارة الرب بواسطة الأوريم والتيميم^(٢)، وتفسير الشريعة للشعب .

تلك - تقريباً - كانت الأعمال والواجبات التى فرضها الإله على الكهنة (كما وردت فى
التوراة) وجعلت وقفاً عليهم لا ينازعهم فيها أحد أو يشاركهم والذى يخالف ذلك من الشعب
فالموت عقوبته . أما إذا كان الخطأ من الكاهن فى تأدية وظيفته فالعقاب يكون إلهياً (معنى هذا
أن الرب هو وحده الذى يملك حق عقابهم) ومثال ذلك موت اثنين من أبناء هارون الأربعة
(ناداب وأيهو) لأنهما قدما ناراً غريبة أمام الرب لم يأمرهما بها .^(٣)

إن تلك المكانة التى اكتسبها الكهنة فى الديانة اليهودية دعمتها تلك الطقوس الشكلية

(١) العدد ٦ : ٢٢ - ٢٦ .

(٢) الأوريم والتيميم (زهر) يستخدم مثل لعبة القمار لاختيار أمر من الأمور .

(٣) القصة وردت فى سفر اللاويين ١٠ : ١ - ٢ .

الأسطورية التي عنيت بالشكل على حساب الروح وجوهر التدين الحقيقي ، فإذا كانت أسفار التوراة الأولى وبالتحديد من السفر الثاني (الخروج) قد مهدت لاستتباب مؤسسة الكهانة الدينية بكل طقوسها السابقة التي أشرنا لها فإن أسفار الأنبياء الآخر قد كشفتهم وعرتهم من ورقة التوت المقدسة التي غطوا بها عوراتهم .

ولعل القرب الزمني مع أزمة الشعب اليهودي وبحثه عن الخلاص هو الذي جعل عزرا ومن معه يقبلون هذه الأسفار الأخيرة لهؤلاء الأنبياء بكل ما تحتوي عليه من تقرير وتوبيخ ولوم لأعمال الكهانة ، فمثلاً يقول النبي أشعيا في سفره :

«اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم . أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة» .

إن النبي أشعيا يشبه كهنة إسرائيل وشعبها في فسادهما بشعبي سدوم وعمورة ثم يضيف مستكراً :

«لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات ویدم عجول وخرفان وتيوس ما أسر . حينما تأتون لتظهروا أمامي من طلب هذا من أيديكم أن تلبسوا دوري» .^(١)

وهذا النبي داود يقول في مزموره الحادي والخمسين :

«نجنى من الدماء يا الله . إله خلاصى فيسبح لسانى برك يا رب افتح شفتى فيخبر فمى بتسبيحك لأنك لا تسر بلييحة وإلا فكنت أقلمها . بمحرقة لا ترضى . ذبائح الله هى روح منكسرة» .^(٢)

يقول أيضاً النبي ميخا :

«لم أتقدم إلى الرب وأنحنى للإله العلى . هل أتقدم بمحرقات بعجول أبناء سنة . هل يسر الرب بالكوف الكباشى ويرىوات أنهار زيت هل أعطى بكرى عن معصيتى ثمر جسدى عن خطية نفسى قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح وماذا يطلبه منك الرب إلا أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع إلهك» .^(٣)

ولعل هذه النصوص السابقة توضح لنا أن التقديمات وطقوسها تلك التى عنى بها الكهنة

(١) أشعيا ١ : ١٠ - ١٢ .

(٢) المزامير ٥١ : ١٤ - ١٧ .

(٣) ميخا ٦ : ٦ - ٨ .

وعنيت بها التوراة أشد العناية لم تكن شريعة إلهية ولم يأمر بها الله لذلك فهي لا تسره ولكنه يطلب التقوى الحقيقية من الناس .

اللاويون UNER

... واكمل التنظيم الكهنوتي الاسرائيلي بتنظيم اللاويين الذين هم باقى سبط لاوى من غير نسل هارون .

وهؤلاء اللاويون كانوا يعدون فى منزلة وسط بين الكهنة وباقى الشعب ، وكما تقول التوراة فى إحدى رواياتها : إن الفرز والتمييز الدينى للاويين قد ارتبط بحادث جاء ذكره فى سفر الخروج فقد عاد النبى موسى من رحلته التى بقى فيها زمناً فى حضرة الله ولم يكذب يصل إلى محلة الشعب وهو يحمل اللوح الذى نُقِشت عليه وصايا الله حتى تنهت إلى سمعه أصوات احتفال فلما اقترب رأت عيناه بنى إسرائيل يلتفون حول عجلهم الذهبى ويعبدونه من دون الله وكان هذا أول ارتداد صريح لهم ، وبلغت ثورة موسى مداها فقبض على العجل فسحقه وأحرقه بالنار ثم ذراه على وجه الماء وتوجه إلى الشعب يسأله : «من للرب فإلى» وهنا اجتمع إليه بنو لاوى ليخبرهم موسى :

«هذا قال الرب إله إسرائيل . ضموا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب فى المحلة واقتلوا كل واحد أخيه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه ففعل بنو لاوى بحسب كلام موسى فوقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل فقال موسى للشعب يعطيكم الرب بركة» . (١)

وفى سفر العدد تقول التوراة إن الإله كرم بنى لاوى للخدمة الدينية عندما كلم موسى قائلاً :

«قلم سبط بنى لاوى وأوقفهم قدام هارون الكاهن وليخدموه فيحفظون شعائره وشعائر كل الجماعة قدام خيمة الاجتماع ويخدمون خدمة المسكن فتعطى اللاويون لهارون وبنيه إنهم موهوبون له من عند بنى إسرائيل ها أنى قد أخذت اللاويين من بين بنى إسرائيل بدل كل بكر فاتح رحم من بنى إسرائيل» . (٢)

على أننا نلاحظ هنا تناقضاً غريباً فى التشريع ، ففى النص السابق أخذ الإله بنى لاوى بدلاً عن

(١) القصة وردت فى سفر الخروج الإصحاح الثانى والثلاثون .

(٢) العدد ٣ : ٥ - ١٠ .

كل بكر من بنى إسرائيل ثم يأتى نص لاحق فى نفس السفر ويعد تعيين اللاويين للخدمة الدينية يقول الإله لهارون :

«كل فاتح رحم من كل جسد يقدمون للرب من الناس ومن البهائم يكون لك ..
غير أنك تقبل فداء بكر الإنسان» (١)

فهل هذه مغالطة من الإله ؟! يفتدى أبكار إسرائيل بتعيين اللاويين للخدمة الدينية ثم يعود فيقبل عوضاً عن نفس الأبقار من البهائم !!
هل يملك أحد تفسير للمسألة فيدلنا عليه ؟!

ونعود للاويين فنقول إن سبطهم يتكون من ثلاثة فروع منسوبة إلى أبناء لاوى الثلاثة قهات وجرشون ومرارى، وكان لكل من نسل هؤلاء الثلاثة اختصاص وضحة التوراة فى إصحاحاتها؛ فمثلاً اختصت عشائر الجرشونيين بالنزول وراء مسكن الرب إلى الغرب وكلفتهم بحراسة الآتى فى خيمة الاجتماع : المسكن والخيمة وغطاؤها وسجف باب خيمة الاجتماع وأستار الدار وسجف باب الدار، أما بنو قهات فكانوا ينزلون على جانب المسكن من الجنوب وحراستهم التابوت والمائدة والمثارة والمذبحين وأمتعة القدس والحجاب وكل خدمته، وعشائر مرارى ينزلون على جانب المسكن من الشمال ويحرسون ألواح المسكن وعوارضه وأعمدته وفرضه وكل أمتعه . (٢)

وبعد الاستقرار فى أرض كنعان وإقامة الهيكل زادت اختصاصات اللاويين فأوكل لهم القيام بأعمال أكثر من تلك التى عينتها التوراة فى أسفارها الأولى وتم تقسيمهم إلى أربعة أقسام ؛ أولهم القضاة والكتبة ومن هؤلاء خرج مفسرو الشريعة فكان عزرا واحد منهم . والقسم الثانى مساعدو الكهنة فى خدمة الهيكل . أما القسم الثالث فكان يضم الموسيقيين الذين يقومون بالغناء والترتيل فى الهيكل . وأخيراً كان البوابون المنوط بهم حراسة الهيكل . (٣)

ولابد أن نشير إلى أن اللاويين كانوا يتميزون بهيئة معينة فيلتزمون بلباس معين أثناء خدمتهم الدينية ؛ كان هذا اللباس لابد أن يصنع من الكتان وهذا لابد يذكرنا مرة أخرى بالتنظيم الكهنوتى المصرى فى المعابد ، فهم بالإضافة للكهنة يقابلون كل الشكل التنظيمى

(١) العدد ١٨ : ١٥ .

(٢) السفر السابق الإصحاح الثالث .

(٣) زكى شئودة (المجتمع اليهودى ص ١٥٨) .

للكهنوت المصرى .

.. وبعد ، إذا عددنا مسألة دخول أعمال الكهانة إلى الديانة اليهودية صورة من صور انحرافها عن شريعة موسى فليس هناك تفسيراً لذلك إلا فى إطار بحث بنى إسرائيل الدائم عن شكل مادي (للدين) يعوضهم عن الفكرة المجردة للإله ، ومع غيبة الأنبياء الحقيقيين أو اضطهادهم إذا وجدوا - ودعوا إلى العودة لصحيح الشريعة التى جاء بها موسى - فقد سيطر الكهنة واللاويون على العملية الدينية فصاروا هم المتحكمين فى تفسير الشريعة وتقرير المقدس وغير المقدس وغير ذلك من الأمور الدينية .

وهكذا أضاف الزمن - دائماً - للكهنة واللاويين مكاسب جديدة وسعت لهم مساحة للسيطرة على مقاليد الأمور وأتاحت لهم التكسب المادي على حساب رسالة السماء وشريعة موسى .

مفهوم النبوة فى إسرائيل ONEREEN

«فسأل الرب فلم يجبه لا بالأحلام ولا بالأوريم ولا بالأنبياء» .

الأحلام والأوريم والأنبياء كانت تلك هى الطرق الثلاثة التى يلجأ إليها بنو إسرائيل عند استبصار الرب فى إحدى المسائل الدنيوية (العويصة) .

وطريقتان من الثلاث (إذا استبعدنا الأوريم) تعطيانا إشارة إلى اعتقاد بنى إسرائيل فى أن الله يستعلن للبشر فيوصل إليهم رسالة أو إشارة ما ، ويكون ذلك أثناء نوم الإنسان فيأتى له الإله أو يرسل من يخبره بالرسالة أو يتم ذلك بتوظيف الأنبياء أى تكليفهم بسؤال الإله لمعرفة إرادته فى مسألة ما .

والصورة الأخيرة حقيقية وليست مجازية وهى تنقلنا إلى نقطة خطيرة ألا وهى نظرة بنى إسرائيل للنبوة وأعمالها .

لقد انحرفت هذه النظرة كثيراً مع انحراف العقيدة ولم يقدر بنو إسرائيل قيمة الاختيار والاصطفاء الإلهي للبشر الأنبياء بل كانوا يعتقدون أن النبوة من التنبؤ وعمل النبي أقرب لعمل المنجم والساحر بل كانت هناك مدارس مثل مدارس السحرة والحواة تخصص لإعداد الأنبياء وأشهر هذه المدارس كانت فى إريحا والجلجال .

ويخبرنا سفر صموئيل الأول أن صاحب السفر دعا واحداً من الشعب اسمه شاول لإجراء طقوس مقدسة وهو يمسحه نبياً قال له :

«بعد ذلك تأتى إلى جبعة الله حيث أنصاب الفلسطينين ويكون عند مجيئك إلى هناك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناي وعود يتبسون فيحل عليك روح الرب فتتبا معهم وتحول إلى رجل آخر». (١)

إذن فقد كانوا يظنون أن روح الرب تأتى بالاستجلاب ويساعد على استحضارها العزف (المقدس) الذى هو أيضاً ميراث طقسى موروث من المعابد المصرية القديمة ، والمتبع لبقية قصة شاول فى أسفار التوراة يفهم أن هذا الرجل كان بعيداً كل البعد عن المؤهلات النفسية للنبوة بمعناها الحقيقى حتى إن مسألة تنبؤ شاول (تحوله إلى نبي) صارت مثلاً يُضرب للسخرية بين معاصريه من بنى إسرائيل :

«ولما جاء إلى هناك إلى جبعة إذا بزمرة من الأنبياء لقيته فحل عليه روح الله فتباً فى وسطهم. ولما رأوه جميع الذين عرفوه منذ أمس وما قبله أنه يتبأ مع الأنبياء قال الشعب الواحد لصاحبه ماذا صار لابن قيس أشاول أيضاً بين الأنبياء فأجاب رجل من هناك وقال ومن هو أبوهم ولذلك ذهب مثلاً . أشاول أيضاً بين الأنبياء». (٢)

وفى إصحاحات تالية تخبرنا التوراة أن شاول هذا صار يتصل بالإله ثم تغير عليه الإله فجأة فندم أن جعله ملكاً على إسرائيل :

«فلهب روح الرب من عند شاول ويغته روح ردى من قبل الرب». (٣)

وذهب عبيد شاول يفتشون عن يحسن الضرب على العود حتى يمنع الروح الردى عن أن تباغته.

فى التوراة أيضاً يتواتر حديث عن (بنو الأنبياء) والمقصود بهم طلاب التنبؤ فنجد مثلاً فى سفر أخبار الأيام الثانى الإصحاح الثامن عشر أن آخاب ملك إسرائيل جمع زمرة من الأنبياء يبلغ عددهم أربعمئة (دفعة واحدة) وسألهم فى أمر ذهابه للقتال (٤) ، وعن هؤلاء وأمثالهم يقول النبي أرميا فى سفره كاشفاً زيفهم وضلالهم :

(١) صموئيل الأول ١٠ - ١٢ .

(٢) صموئيل الأول ١٠ : ١٠ - ١٢ .

(٣) السفر السابق ١٦ : ١٤ .

(٤) القصة وردت فى أخبار الأيام الثانى ١٨ : ٥ .

وعندما شرع عزرا فى جمع بنى إسرائيل للعودة بهم إلى فلسطين إبان السبى البابلى برر كاتب التوراة طرده للعنصر غير اليهودى تبريراً دينياً بينما كانت أسبابه الحقيقية فى ذلك سياسية اجتماعية فى محاولة منه للحفاظ شكلياً على مظهر متماسك لجماعة إسرائيل والطنطنة بمسألة القومية اليهودية مقابل حكام الفرس ، وكان عزرا يبحث أيضاً عن مبرر قوى لإقناع أكثر اليهود بالعودة إلى فلسطين فلم يجد خيراً من الدين يؤثر به على الوجدان فيشير العاطفة نحو أرض الميعاد ويحى فيهم وعود الرب التى قطعها لهم علامة ودليلاً على رضائه عن شعبه وابنه البكر إسرائيل.

الأعداد فى التوراة

القارئ للتوراة سيدهشه ولعها بالأعداد والمبالغة فى ذكرها أيما مبالغة ، وأول ملاحظة فى هذا الصدد تجدها فى الحديث عن تعداد الشعب الذى خرج من مصر ، ودخولهم كان فى سبعين نفساً (رجل وامرأة وطفل) بينما خروجهم (كما تقول التوراة) كان فى أكثر من مليون نفس !!

وعن هذا يقول سفر العدد إن الرب طلب من موسى فى البرية فى أول الشهر الثانى السنة الثانية لخروجهم من مصر أن يحصى شعب إسرائيل ابن عشرين سنة فصاعداً فكان ناتج هذا الإحصاء ستمائة ألف وثلاثة وخمسمائة وخمسين .. (١) فإذا قدرنا عدد النساء والصبية دون العشرين والأطفال وأضفناهم إلى هذا العدد سيكون الناتج أكثر من مليون !

يقول أيضاً سفر الخروج إن مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر كانت ٤٣٠ سنة (وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة وكان عند نهاية أربعمائة وثلاثين سنة (٢) إلى آخره .

وعن عدد الخارجين من مصر ومدة إقامة بنى إسرائيل فيها لنا ملاحظتان :

الأولى : إن مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر حتى لو بلغت ٤٣٠ عاماً كما تقول التوراة فمن المستحيل أن يبلغ تعدادهم فى هذه السنين أكثر من مليون نسمة لأن هذا معناه أنهم تضاعفوا ١٤٢٨٥ مرة !

(١) سفر الله الإصحاح الأول .

(٢) سفر الخروج ١٢ : ٤٠ .

والثانية : إن مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر لا يمكن أن تكون بأية حال من الأحوال ٤٣٠ عاماً والسبب نستطيع أن نكتشفه فى الإصحاح السادس من سفر الخروج ، فإذا تتبعنا أجيال بنى إسرائيل المولودة فى مصر وعلى سبيل المثال ذرية لاوى بن يعقوب التى وردت فى هذا الإصحاح من هذا السفر تقول :

«وهذه أسماء بنى لاوى بحسب مواليدهم جرشون وقهات ومرارى . وكان سنو حياة لاوى مئة وسبعة وثلاثين سنة وبنو قهات عמרام ويصهار حبرون وعزئييل ... وكانت سنو حياة قهات مئة وثلاثاً وثلاثين وأخذ عמרام يوكابد عمته زوجة له فولدت له هارون وموسى وكانت سنو حياة عמרام مئة وسبعاً وثلاثين سنة» . (١)

ومعنى ذلك أن موسى من الجيل الثانى المولود فى مصر

لاوى - قهات - عמרام - موسى

وميلاد جيلين فى مصر لا يمكن أن يستغرق كل هذه السنين بمعنى أنه لكى يعيش بنو إسرائيل تلك المدة فى مصر يكون قهات مولود عند موت أبيه لاوى ، وعمرام مولود عند موت أبيه قهات وموسى مولود عند موت أبيه عמרام أى تحسب الأعمار دون أى تداخل وهذا مستحيل ، والأقرب إلى الصحة بالنسبة للسنين التى عاشها بنو إسرائيل فى مصر هو النتيجة التى وصل إليها أحد الباحثين (٢) وتقدر تلك المدة بحوالى ٢٣٠ عاماً .

إذن فما هو التفسير المعقول للأعداد الكبيرة التى خرجت مع موسى ؟!

نحن نعتقد أن الذين خرجوا مع موسى لم يكونوا بنى إسرائيل فقط ولكن كان بينهم غرباء كثيرون بل كان فيهم أيضاً مصريون آمنوا بدعوة موسى التوحيدية وخرجوا معه خوفاً من بطش فرعون وهرباً بدينهم والدليل أن الشريعة الموسوية ذكرت دائماً فى نصوصها ذلك الغريب الذى ليس من نسل إسرائيل وسأوته فى الحقوق مع الإسرائيلى على الرغم من أن التوراة وبالذات فى سفر تثنية الاشتراع قد لوت عنق تلك الشريعة وأوردت من النصوص ما ينفى الآخر ويسلبه حقوقه الإلهية لصالح الإسرائيلى .

(١) الخروج : ٦ .

(٢) الباحث هو محمد قاسم محمد ويخته منشور فى كتاب بعنوان التوراة من آدم حتى سبى بابل .

ركبته يتوسل العفو من أستير التى اتكأت على سريرها وبينما هما على هذا الحال يعود الملك مرة أخرى إلى القاعة ليفاجئه المشهد فيزداد إضطرام النيران فى نفسه ويشير إلى هامان إشارة الهلاك فيتشجع واحد من العبيد ويكشف للملك أمر الخشبة التى أعدها هامان فى بيته ليصلب عليها مردوخاى فىأمر الملك بأن يصلب هامان نفسه فيها !! .. ويسكن غضب الملك !! .. بينما للانتقام اليهودى مازالت هناك بقية .

وتبوأ مردوخاى مكان هامان واستلم خاتم الملك وواصلت أستير ما بدأت فتضرعت للملك أن يعمل على إنقاذ باقى شعبها (هكذا كان يبدو الأمر بينما الحقيقة شئ آخر) وأجاب الملك أستير فأ

